

حديث الإفك

عَبْرَاتٌ وَعِبَرَةٌ

تَأليفُ

أَبِي هَيْبَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الرَّجَبِيِّ

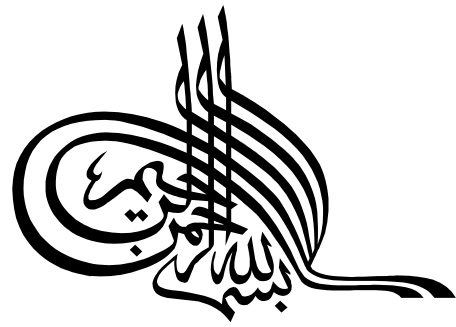
غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

حديث الإفك عبرَاتٌ وَعِبْرَةٌ

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

عفا الله عنه وغفر له



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله ذي الجلال والجمال والكمال، ذي الآلاء التي لا نحصي لها عدًّا، أسبغ علينا نعمه ظاهرةً وباطنة، فما بنا من نعمةٍ فمنه وحده لا شريك له، فله الحمد كله ظاهرًا وباطنًا وأزلاً وسرمدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جلّ عن المثل وعن الندّ وعن النظير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيّه وخليته وكليمه، بلّغ حق البلاغ، وبشّر أجمل البشارات، وأنذر تمام الإنذار، السعيد من اتّبعه، والشقي من عصاه، ﷺ وبارك، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان. أما بعد:

فقد توقّف العلماء كثيرًا متأمّلين متدبّرين عظيمة وجلالة العبر من قصة الإفك الهائلة، وما في ثناياها من الرحمات الإلهية لنبي الله صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، ولأهله وأصحابه من آل أبي بكر، وللأمة المرحومة من بعدهم.

إنّها الحادثة التي هزّت المجتمع الإسلامي النبوي، وأقلقت السادة، وقلقت الكبار، وأنصعت طيب أهل اليقين، وضوّعت نَشْرَهُم، وأشهرت فضلهم، وزلزلت إيمان من كان على حرفٍ، وحيرت عقولًا وأدهشت أفئدة! وأوهت أبنية بعض المتّقين،

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

وأوهنت قوّة بعض الفضلاء، وهذّت عزائم آحادٍ من الحُلَمَاءِ، وزاغ فيها من زلّت به القدم إلى مراتع اللسان وسيء الظنون بأهل الإيمان، وثبّت الله أفئدة فئام من المؤمنين فأحسنوا الظن بعباد الرحمن، وأطلقوا على المفترين وحاملي الإفك سهام النكران، وعاتب الله تعالى المؤمنين الذين لم يلتزموا جانب الإحسان في ظنونهم تجاه الإخوان. وتولّى ربُّ العالمين ومالكُ الدنيا والدين، وجبأرُ السماوات والأرضين الدِّفاع عن الصِدِّيقَةِ أم المؤمنين، وعتاب من زل فيها من الصالحين، ولَعَنَ الذين يَجَبُّون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين من المُقترين والأفّاكين والمرجفين، وجعلها سبحانه وبحمده آيةً شاهدةً للمؤمنين إلى يوم يقوم الأَشهادُ ويلقى العبادُ رب العالمين.

رَأَيْتُكَ وَلِيُغْفِرَ لَكَ اللهُ حُرَّةً
حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيْبَةٍ
عَقِيْلَةٌ حَيٌّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ
مُهَدَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللهُ خِيْمَهَا
مِنَ الْمُحْصَنَاتِ غَيْرِ ذَاتِ غَوَائِلٍ
وَتُصْبِحُ غَرْتِي مِنْ حُومِ الْغَوَائِلِ
كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرِ زَائِلٍ
وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلٍ

وقد ذُكِرَتْ هذه القصة الجليلة المزلزلة في الصحاح والمسانيد بألفاظ متقاربة ومعانٍ متشابهة متوافقة، وخرّجها محدّثُ الإسلام وأميرُ المؤمنين في الحديث الإمامُ أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل البخاري رحمه الله في صحيحه في عدّة مواضع، ومن أجمعها قوله رحمه الله

بَابُ حَدِيثِ الْإِفْكِ

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ صَالِحٍ، عَنْ ابْنِ شَهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَسَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ وَقَّاصٍ وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا (٢)، وَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنْ حَدِيثِهَا، وَبَعْضُهُمْ كَانَ

(١) انظر خبر الإفك بطوله على لسان أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضوان الله عليها وعلى أبيها في البخاري (١٩٨/٥، ٢٠١) (٣٣٣/٧)، (٣٣٥) (٣٤٣/٨، ٣٦٧) وانظر شرح الموضوع الأخير من فتح الباري في تفسير سورة النور. وأخرجه مسلم (٣١٧٩، ١٧٣٠) والترمذي (٣١٧٩) وعبد الرزاق في المصنف (٩٧٤٨) وانظر: سيرة ابن هشام (٢٩٧/٢، ٣٠٧) البداية والنهاية لابن كثير (٣٠٤/٣، ٣١١) وتفسيره (٢٧٢، ٢٦٨/٣).

وهذا الحديث جدير بالإذاعة بين المسلمين، لأن تحته من العبر، وقرع غوافل القلوب، وترويح أرواح المبتلين، وبث أوامر حسن الظن بين عباد الرحمن ما لا يحوط به وصف.

(٢) قال السهيلي في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ [النور: ١١]: هم =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

أَوْعَىٰ لِحَدِيثِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَأُثْبِتَ لَهُ اقْتِصَاصًا، وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ الْحَدِيثَ الَّذِي حَدَّثَنِي عَنْ عَائِشَةَ، وَبَعْضُ حَدِيثِهِمْ يُصَدِّقُ بَعْضًا، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَوْعَىٰ لَهُ مِنْ بَعْضٍ (١) قَالُوا: قَالَتْ عَائِشَةُ:

= عبد الله ابن أبي، وحننة بنت جحش، وعبد الله أبو أحمد أخوها، ومسطح، وحسان. وقيل: حسان لم يكن منهم. قلت: قد ثبت حده وتطهيره. وزاد النسفي: يزيد بن رفاعه. وفي صحيح مسلم: وكان الذين تكلموا: مسطح، وحننة، وحسان، وأما المنافق عبد الله بن أبي فهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره، وحننة. ومعنى يستوشيه أي يستخرجه بالبحث والمسألة، ثم يفشيه ويشيعه ويحركه ولا يدعه يخمد، لإمعانه في عداوة رسول الله ﷺ، وانتهازه الفرص، وطلبه سبيلاً إلى الغميمة.

أما الإفك فقال النسفي: الإفك أبلغ ما يكون من الافتراء والكذب. وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك، وأصله الأفك بالفتح مصدر قولك أفكه يأفكه أفكاً إذا قلبه وصرفه عن الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَجْتَنَّا لِنَأْفِكَنَّ عَنِ الْهَتْنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢] وقيل للكذب إفك لأنه مصروف عن الصدق.

(١) قال أبو عمر بن عبد البر رحمته الله: كان ابن شهاب — قلت: وهو الزهري — أكثر الناس بحثاً عن هذا الشأن — أي حديث رسول الله ﷺ — فكان ربما اجتمع له في الحديث جماعة، فحدث به مرة عنهم، ومرة عن أحدهم، ومرة =

حديث الإفك: عبراتٌ وعبرٌ

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ (١)، فَأَيُّهُنَّ خَرَجَ

= عن بعضهم، على قدر نشاطه حين تحديثه. وربما أدخل حديث بعضهم في حديث بعض، كما صنع في حديث الإفك وغيره، وربما كسل فلم يُسند، وربما انشرح فوصل وأسند، على حسب ما تأتي به المذاكرة. فلذا اختلف عليه أصحابه اختلافاً كثيراً. ويبين ذلك روايته حديث ذي اليمين، رواه عنه جماعة، فمرة يذكر فيه واحداً، ومرة اثنين، ومرة جماعة، ومرة جماعة غيرها، ومرة يصل، ومرة يقطع. شرح الزرقاني للموطأ (١/ ٢٨٢).

وفي عمدة القاري شرح صحيح البخاري: (٢٠/ ٢٩٥): وقال الزهري: وكلهم حدثني طائفة: أي بعضاً، وهذا قول جائز سائق من غير كراهة، لأنه قد بين أن بعض الحديث عن بعضهم، وبعضه عن بعضهم، والأربعة الذين حدثوه أئمة حفاظ، من أجلة التابعين، فإذا ترددت اللفظة من هذا الحديث بين كونها عن هذا أو عن ذلك لم يضر، وجاز الاحتجاج بها، لأنها ثقتان. وقد اتفق العلماء على أنه لو قال: حدثني زيد أو عمر وهما ثقتان معروفان بذلك عند المخاطب؛ جاز الاحتجاج بذلك الحديث.

وقوله: أو عى من بعض: أي أحفظ وأحسن إيراداً وسرداً للحديث. وقوله: اقتصاصاً: أي حفظاً، يقال: قصصت الشيء، إذا تتبعته أثره شيئاً بعد شيء، ومنه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣] ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص: ١١] أي: اتبعي أثره.

(١) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: هذا دليل لمالك والشافعي وأحمد وجماهير العلماء في =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةِ غَزَاهَا^(١) فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ مَا أَنْزَلَ الْحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي^(٢).

= العمل بالقرعة في القسم بين الزوجات، وفي العتق، والوصايا، والقسمة ونحو ذلك. وقد جاءت فيها أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة. قال أبو عبيد: عمل بها ثلاثة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: يونس، وزكريا، ومحمد ﷺ. قال بن المنذر: استعملها — أي القرعة — كالإجماع، قال: ولا معنى لقول من ردها. شرح النووي على مسلم: (١٧/١٠٣).

(١) هي غزوة المريسيع.

(٢) قال الحافظ: أي بعد ما نزل الأمر بالحجاب، والمراد: حجاب النساء عن رؤية الرجال لهن، وكن قبل ذلك لا يُمنعن. وهذا قالتها كالتوطئة للسبب في كونها كانت مستترة في الهودج، حتى أفضى ذلك إلى تحميله وهي ليست فيه، وهم يظنون أنها فيه، بخلاف ما كان قبل الحجاب، فلعل النساء حينئذ كن يركبن ظهور الرواحل بغير هودج، أو يركبن الهودج غير مستترات، فما كان يقع لها الذي يقع، بل كان يعرف الذي كان يخدم بغيرها إن كانت ركبت أم لا. الفتح: (٤٥٥/٨).

أما الهودج فهو: هو مركب من مراكب نساء العرب، عبارة عن محمل له قبة تُستر بالأقمشة ونحوها، يوضع على ظهر البعير، تركبه النساء ليكون =

حديث الإفك: عَبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

وَأُنزِلَ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلْ، دَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ (١)، فَقُمْتُ حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي، أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعِ ظَفَارٍ (٢) قَدْ

= أسترهن عند السفر فوق البعير من العين والشمس والأذى. وفي رواية ابن إسحاق: فكنت إذا رحلوا بعيري جلست في هودجي، ثم يأخذون بأسفل الهودج، فيضعونه على ظهر البعير. وقيل إن الذي كان يرحل هودجها، ويقود بعيرها هو أبو مويهبة، - أو موهوبة - مولى رسول الله ﷺ، وراوي حديث مرضه ﷺ، وكان رجلاً صالحاً.

(١) وقفل: أي رجع. وقولها: آذن ليلة: من الإيدان، ومن التأذين، قاله الكرمانى. ويقال: آذن بالمد والتخفيف مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ ءَأَذْنُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

(٢) جزع ظفار وروي أظفار: الجزع هنا: حجر منسوب لموضع باليمن يقال له: ظفار. وتروى جزع وهو الخرز، ولا شك أن حمله عليه أولى، فما تصنع بقلادة الحجارة؟! ويمكن الجمع بالقول بأنها حجارة كريمة ولعلها نوع من العقيق. ويقال: جزع ظفاري. وقال ابن التين: ورد في بعض الروايات أن العقد الملتمس مقدار ثمنه اثني عشر درهماً. والعقد: هو القلادة.

وانظر: شرح النووي على مسلم (١٧ / ١٠٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني (٢٠ / ٣٠٠) جامع الأصول في أحاديث =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

انْقَطَعَ (١) فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ (٢)، قَالَتْ:
وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرْحَلُونِي (٣)، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ
عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ
النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ (٤)، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ

= الرسول لمجد الدين ابن الجزري (٢/ ٢٧٢) الديباج على مسلم
للسيوطي (٦/ ١٢٦).

(١) قلت: إذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه، وكم في هذا الأمر من لطيفة ربانية
ومنحة رحمانية، فله الحمد في الأولى والآخرة.

(٢) وفي رواية ابن إسحاق: فرجعت عَوْدِي على بدئي، إلى المكان الذي
ذهبت إليه. وفي رواية الواقدي: وكنت أظن أن القوم لو لبثوا شهرًا لم
يبعثوا بعيري، حتى أكون في هودجي.

(٣) يَرْحَلُونَ وَيُرْحَلُونَ: أي يجعلون الرَّحْلَ على البعير. رحلت البعير أي
شددت عليه الرحل. وفي لفظ: «يرحلون لي» باللام، قال النووي:
يرحلون بي بالباء، واللام أجود. وقال الكرماني: الرحل: المتاع. وقال
بدر الدين العيني الحنفي: الرحل: المنزل والمسكن، يقال: انتهينا إلى
رحالنا، أي إلى منازلنا. عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني
(٢٠/ ٣٠١).

(٤) لم يَهْبُلْنَ: وهذا الضبط أشهر عند النووي، أي: لم يكثر لحمهن من السمن
فيثقلن، والمُهْبَلُ: الكثير اللحم، الثقليل الحركة من السَّمَنِ. وفي رواية =

مِنَ الطَّعَامِ (١)، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ الْقَوْمُ خِفَّةَ الْهُودَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السَّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ فَسَارُوا (٢)، وَوَجَدْتُ

= للبخاري: «لم يثقلن» وهو بمعناه. وانظر: جامع الأصول، لمجد الدين ابن الجزري (٢ / ٢٧٢) وقال السيوطي في الديباج: لم يُهَبَّلَنَّ: ضَبَطَ بضم الياء وسكون الهاء والباء المشددة أي: لم يثقلن باللحم والشحم. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «لم يُهَبَّلَنَّ اللحم»: أي لم يكثر عليهن، ولم يركب بعضه بعضًا حتى يُرهلهن؛ يقال منه: أصبح فلان مهبلًا، إذا كان مورم الوجه. غريب الحديث لابن سلام (٤ / ٣٣٥).

(١) قال العيني في عمدة القاري: ولم يغشهن اللحم: أي لم يركب عليهن اللحم، يعني لم يكن سمينات.

العُلقة: البُلغة من الطعام، قدر ما يُمسك الرمق، تريد القليل. ويقال لها أيضا البُلغة، كأنه الذي يمسك الرمق وتعلق النفس للازدياد منه، أي تشوقها إليه. وقيل ما يمسك به المرء نفسه من الأكل وقيل هو ما يأكله من الغداة. وقال صاحب العين: العُلقة: ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغداة، وأصل العُلقة شجر يبقى في الشتاء يعلق به الإبل، أي تجتزىء به حتى يدرك الربيع، - قلت: ولعلها العُلَيْقَة، ويزعم اليهود أنها الشجرة التي كلم الله تعالى منها موسى عليه السلام - .

(٢) قال الحافظ: ويستفاد من ذلك أن الذين كانوا يرحلون بعيرها كانوا في غاية الأدب معها، والمبالغة في ترك التنقيب عمًا في الهودج، بحيث أتمها لم =

حديث الإفك: عبرات وعبر

عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلَا مُجِيبٌ! (١) فَتَيَمَّمْتُ (٢) مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ (٣)، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي غَلَبَتْنِي عَيْنِي

= تكن فيه، وهم يظنون أنها فيه، وكأنهم جوزوا أنها نائمة. قولها: وكنت جارية حديثه السن. هو كما قالت، لأنها أدخلت على النبي ﷺ بعد الهجرة في شوال، ولها تسع سنين، وأكثر ما قيل في المريسيع أنها كانت في شعبان سنة ست، فتكون لم تكمل خمس عشرة. فإن كانت المريسيع قبل ذلك فتكون أصغر من ذلك. ويحتمل أن تكون أشارت بذلك إلى بيان عذرها فيما فعلته من الحرص على العقد الذي انقطع، ومن استقلالها بالتفتيش عليه في تلك الحال، وترك إعلام أهلها بذلك، وذلك لصغر سنّها، وعدم تجارها للأمر، بخلاف ما لو كانت ليست صغيرة؛ لكانت تتفطن لعاقبة ذلك، وقد وقع لها بعد ذلك في ضياع العقد أيضًا أنها أعلمت النبي ﷺ بأمره، فأقام بالناس على غير ماء، حتى وجدته، ونزلت آية التيمم بسبب ذلك، فظهر تفاوت حال من جرب الشيء ومن لم يجربه. الفتح: (٤٦١ / ٨).

- (١) داع ولا مجيب: أي ليس بها أحد لا من يدعو، ولا من يرد جوابًا.
- (٢) أي: قصدت، من أمّ، ومنه ﴿أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة: ٢].
- (٣) وهذا من وافر عقلها ورجاحة فكرها، وهكذا ينبغي لمن فقد شيئاً أن يرجع بفكره القهقري، إلى الحد الذي يتحقق وجوده، ثم يأخذ من هناك =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

فَنِمْتُ^(١)، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيِّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ^(٢)،

= في التنقيب عليه. ذكره الحافظ وقال: وأرادت بمن يفقدها من هو منها بسبب كزوجها أو أبيها، والغالب الأول، لأنه كان من شأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُسَيرَ بعيرها، ويتحدّث معها، فكأن ذلك لم يتفق في تلك الليلة، ولما لم يتفق ما توقعته من رجوعهم إليها ساق الله إليها من حملها بغير حول منها ولا قوة.

(١) قال الحافظ: يحتمل أن يكون سبب النوم شدّة الغمّ الذي حصل لها في تلك الحالة، ومن شأن الغمّ - وهو وقوع ما يكره - غلبة النوم، بخلاف الهمّ - وهو توقع ما يكره - فإنه يقتضي السهر. أو لما وَقَعَ من برد السحر لها، مع رطوبة بدنها، وصغر سنّها. وعند بن إسحاق: فتلففت بجلبابي، ثم اضطجعت في مكاني. أو أن الله سبحانه وتعالى لطف بها، فألقى عليها النوم، لتستريح من وحشة الانفراد في البرية بالليل.

(٢) وراء الجيش: لينظر من سقط له شيء يأتيه به. وكان صفوان على السّاقّة - وهي مؤخرة الجيش - يلتقط ما يسقط من متاع الجيش، ليردّه إليهم. وقيل: إنه كان ثقیل النوم، لا يستيقظ حتى يرتحل الناس، وقد جاء في سنن أبي داود أن امرأته شكّت ذلك منه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال صفوان: إنا أهل بيت نوم عُرِفَ لنا ذلك، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشمس. وذكر القاضي أبو بكر بن العربي أن صفوان كان حصورًا، لا يأتي النساء. وأول مشاهده المريسي، وقيل الخندق وما بعدها. وكان شجاعًا، خيرًا =

حديث الإفك: عبرات وعبر

فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ^(١) إِنْسَانٍ نَائِمٍ، فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَيْتُهُ، وَكَانَ رَأْيِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ^(٢) حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ^(٣) وَجْهِي بِجِلْبَابِي^(٤)، وَوَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلَا سَمِعْتُ

= شاعراً. وعن ابن إسحاق: قُتِلَ فِي غَزْوَةِ أَرْمِينِيَّةٍ شَهِيدًا سَنَةَ تِسْعِ عَشْرَةِ، وَانْدَقَّتْ رِجْلُهُ يَوْمَ قُتِلَ فَطَاعَنَ بِهَا وَهِيَ مَنْكَسِرَةٌ حَتَّى مَاتَ! وَقِيلَ: تَوَفِّيَ فِي خِلَافَةِ مَعَاوِيَةَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ.

وَمَا ضَرَبَ حَسَانَ بْنَ ثَابِتٍ بِسَيْفِهِ لَمَّا هَجَاهُ لَمْ يَقْتَصِّهِ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَلِ اسْتَوْهَبَ مِنْ حَسَانَ جَنَائِتَهُ، فَوَهَبَهَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَعَوَّضَهُ مِنْهَا حَائِطًا مِنْ نَخِيلٍ وَسِيرِينَ أُخْتِ مَارِيَةَ. وَقِيلَ: إِنْ إِعْطَاءَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِحَسَانَ سِيرِينَ إِنَّمَا كَانَ لَذْبِهِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. عمدة القاري (٢٠ / ٣٠٣).

(١) سواد إنسان أي شخصه الذي لم تتبين ملامحه.
(٢) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون. قال الحافظ: وكأنه شقَّ عليه ما جرى لعائشة، أو خشي أن يقع ما وقع، أو أنه اكتفى بالاسترجاع رافعاً به صوته عن مخاطبتها بكلام آخر، صيانةً لها عن المخاطبة في الجملة، وقد كان عمر يستعمل التكبير عند إرادة الإيقاظ. وفيه دلالة على فطنة صفوان وحسن أدبه.

(٣) فخرت أي غطيت. ومنه سميت الخمر لتغطيتها العقل.

واحذر الخمرة لا تشرها كيف يسعى لجنون من عقل!

(٤) بجلبابي: الجلباب: ما يتغطى به الإنسان من ثوب أو إزار.

حديث الإفك: عبراتٌ وعبرٌ

مِنْهُ كَلِمَةٌ غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ^(١) وَهَوَى^(٢) حَتَّى أَنْخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا^(٣)، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَاَنْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ، حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ مُوْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ^(٤) وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبَرَ الْإِفْكِ^(٥) عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أَبِي ابْنِ سَلُولٍ.

قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيَتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيَقْرَهُ

(١) ظاهر الكلام أنه لم يُسَلِّمَ عليها لعظيم صيانته وجليل عفافه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعنه، وفيه القسم للتأكيد ولو لم يُطلب.

(٢) هوى: هوى الإنسان: إذا سقط من علوٍّ، والمراد: أنه نزل من بعيره عَجَلًا.

(٣) أي فوطئ صفوان يد الراحلة ليسهل الركوب عليها فلا يكون احتياج إلى مساعدة.

(٤) قال النووي: المُوغِرُ: النازل في وقت الوَغْرَةِ، وهى شدة الحر. ونحر الظهرية: وقت القائلة، وشدة الحر. وقيل: نحر كل شيء أوله. قال العيني: شدة الحر، والنحر الأول، والصدر، وأوائل الشهر تُسمى النحور. وقال الداودي: الظهرية: نصفُ النهار عند أول الفياء. وقال ابن الجزري: ومنه يقال: وغر صدره يوغر: إذا اغتاض وحمي، وأوغره غيره، فيكون قولها: موغرين أي: داخلين في شدة الحر. وقال الخطابي: نحر الظهرية: أول القائلة.

(٥) كبر الإفك: معظمه.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ^(١)، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِفْكِ
أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ فِي
نَاسٍ آخَرِينَ لَا عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عَصَبَةٌ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى^(٢)، وَإِنَّ

(١) يستوشيه: أي يستخرجه بالبحث عنه والاستقصاء، كما يستوشي الرجل
فرسه: إذا ضرب جنبيه بعقبه أو بسوطه ليجري، يقال: أوشى فرسه،
واستوشاه.

(٢) قال البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي نِظْمِ الدَّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ: (٥/
٢٤١): ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُمْ عَصَبَةٌ. وَقَدْ ذَكَرُوا حَسَانَ مِنْهُمْ، وَأَنَا وَاللَّهُ لَا أَظُنُّ
بِهِ أَصْلًا وَإِنْ جَاءَتْ تَسْمِيَتُهُ فِي الصَّحِيحِ، فَقَدْ يَخْطِئُ الثَّقَةُ لِأَسْبَابِ لَا
تَحْصِي، كَمَا يَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْ مَارَسِ نَقْدِ الْأَخْبَارِ، وَكَيْفَ يَظُنُّ ذَلِكَ وَلَا
شُغْلَ لَهُ إِلَّا مَدْحَ النَّبِيِّ ﷺ، وَالْمُدَافَعَةَ عَنْهُ وَالذَّمَّ لِأَعْدَائِهِ، وَقَدْ شَهِدَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَهُ، فَأَقْسَمَ بِاللَّهِ أَنَّ الَّذِي أَيْدِيهِ
بِجَبْرِيلَ مَا كَانَ لِيَكْلَهُ إِلَى نَفْسِهِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، وَقَدْ سَبَقَنِي إِلَى الذِّبِّ
عَنْهُ الْحَافِظُ عِمَادُ الدِّينِ ابْنُ كَثِيرٍ الدَّمَشْقِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَكَيْفَ لَا يَنَافِحُ عَنْهُ
وَهُوَ الْقَائِلُ:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمدٍ منكم وقاءُ
وهو القائل يمدح عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ويكذب من نقل عنه ذلك:
فإن كان ما بُلِّغَتْ عَنِّي قَلْتُهُ فلا رفعتُ سوطي إليَّ أناملي
وكيف وودي ما حييت ونصرتي لآل رسول الله زين المحافل =

= وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب: وأنكر قوم أن يكون حسان خاض في الإفك، ووجد فيه. ورووا عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها برأته من ذلك .

قلت: أما جلده فثابت، وكذلك اتهام عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا له بذلك، وضرب صفوان له بالسيف، وليس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمعصوم، وتأيد الروح القدس له ليس بوارد هنا، لأنه إنما دُعي بتأييده في هجاء الكفار، حتى ورد أن جبريل قد أيده بسبعين بيتاً من أبيات الشعر المصمية للكفرة، وعلى كُـلِّ فالحِدِّ كَفَّارة، والتوبة كفارة، وأقوى ما يمكن أن تقاوم به روايات الإثبات هي نفيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما قيل عنه وإنكاره، بل وإرسال ذلك في أبيات سائرة، مشفوعة بدعاء على نفسه إن كان كاذباً، فلعله — وهذا الظن الحسن به وبأصحاب رسول الله ﷺ — قد شهد عليه زوراً، أو فهم منه ما لم يقصده فجلد مع غيره، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه فهو شاعر الإسلام بلا مدافع.

وفي السيرة الحلبية: ولم يُحَدِّ الخبيث عبد الله بن أبي بن سلول؛ لأن الحد كفارة، وليس من أهلها. وقيل: لأنه لم تقم عليه البينة بذلك، بخلاف أولئك، وقيل: لأنه كان لا يأتي بذلك على أنه من عنده، بل على لسان غيره.

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما زنت - وفي لفظ - لم تبغ امرأة نبي قط. وأما قوله تعالى في امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ فالمراد: أذاتهما، قالت امرأة نوح عليه السلام في حقه: إنه المجنون، وامرأة لوط عليه =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= السلام دلت على أضيافه. قلت: ولعلّ الخيانة في الآية هي خيانة الدين، وذلك بالكفر بالله ورسوله.

وقيل: إنما جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط عليهما السلام، ولم يجوز أن تكون فاجرة أي زانية؛ لأن النبي مبعوثٌ إلى الكفار ليدعوهم، فيجب أن لا يكون معه منقص ينفرهم عنه، والكفر غير منقص عندهم، وأما الفجور فمن أعظم النقصان.

وفي الخصائص الصغرى: ومن قذف أزواجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فلا توبة له البتة، كما قال ابن عباس وغيره - أي لا تقبل ظاهراً وإن قبلها الله بينه وبين عبده، وهذا فرعٌ عن سبِّ الرسول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فإن توبته ظاهراً لا تقبل على المشهور، كما حرّره شيخ الإسلام في الصارم المسلول - ويُقتل، كما نقله القاضي عياض وغيره، وقيل: يختص القتل بمن قذف عائشة، ويحد في غيرها حدين. قلت: وروي نحوه عن ابن عمر، وفي رواية ضعيفة أن ابن أبي جُلد مئة وستين.

وقد وقع أن الحسن بن يزيد الراعي من أهل طبرستان وكان من العظماء الزهاد الأمرين بالمعروف، وكان يرسل في كل سنة إلى بغداد عشرين ألف دينار تفرّق على أولاد الصحابة، فحضر عنده رجل من أشياع العلويين فذكر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالقبیح، فقال الحسن لغلامه: يا غلام، اضرب عنق هذا، فنهض إليه العلويون وقالوا: هذا رجل من شيعتنا، فقال: معاذ الله، هذا طعن على رسول الله، قال الله تعالى: ﴿الْحَيْثُ لِلْحَيْثِينَ وَالْحَيْثُونَ لِلْحَيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

كَبُرَ ذَلِكَ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ. قَالَ عُرْوَةُ: كَانَتْ عَائِشَةُ تَكْرَهُ أَنْ يُسَبَّ عِنْدَهَا حَسَّانٌ، وَتَقُولُ: إِنَّهُ الَّذِي قَالَ فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعَرِضِي لِعَرِضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءٌ..

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا (١) وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ (٢) فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ، لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيئِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَيَسَلُّنِي ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟» (٣) ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيئِي (٤) وَلَا أَشْعُرُ

= فإن كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا خبيثة فإن زوجها يكون خبيثاً وحاشاه ﷺ من ذلك، بل هو الطيب الطاهر، وهي الطيبة الطاهرة المبرأة من السماء، يا غلام اضرب عنق هذا الكافر، فضرب عنقه. باختصار عن السيرة الحلبية: (٢/ ٦٢٥ - ٦٢٧).

- (١) وهذا من رحمة الله بها إذ لم تسمع قالة الناس لانشغالها عنهم بمرضها.
- (٢) يفيضون: الإفاضة في الحديث: التحدث به، ونشره، وإشهاره، والخوض فيه بين الناس. يقال: أفاض القوم في الحديث: إذا اندفعوا فيه يخوضون، وهو من قوله: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٤١].
- (٣) تيكم: إشارة إلى المؤنث ك«ذاكم» في المذكر.
- (٤) يريب: من الرّيب والريبة وهي الشك. ووردت بفتح الياء وهي أفصح =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ^(١)، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ^(٢) قَبْلَ الْمُنَاصِعِ^(٣)، وَكَانَ مُتَبَرِّزَنَا، وَكُنَّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ

= كما في حديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» (أحمد: ٢٢٣٤) (البيهقي في السنن: ٢٠٨٤٠) (الترمذي: ٢٥١٨ وصححه) وهو ما استعملته الصديقة في كلامها، وتروى بالضم وهي صحيحة، وانظر: تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد الحسيني (٥٤٩/٢) وهو كتاب حافل جامع كبير.

قال النووي: يريني: بفتح أوله وضمه، يقال: رابه وأرابه، إذا أوهمه وشككه. واللطف: هو البر والرفق.

(١) نقهت: بفتح القاف وكسرهما، والناقه: الذي أفاق من المرض، وبرأ منه، وهو قريب عهد به، لم يتراجع إليه كمال صحته. وجمع الناقه نُقَه، ويقال: أنقَهه الله.

(٢) أم مسطح: اسمها سلمى، مشهورة بكنيتها. ويقال: اسمها ريطه. ومسطح لقب، واسمه عامر، وقيل: عوف. قال ابن سعد: أسلمت أم مسطح، فحسن إسلامها، وكانت من أشد الناس على مسطح حين تكلم مع أهل الإفك. ترجمتها في: الإصابة ٨/٣٠٢ - ٣٠٣).

(٣) المناصع: المواضع الخالية، تُقضى فيها الحاجة، من الغائط والبول، وأصله: مكان فسيح خارج البيوت، واحدا: منصع. وفي الديباج: المناصع مواضع خارج المدينة، كانوا يتبرزون فيها.

أَنْ تَتَّخِذَ الْكُنْفَ (١) قَرِيبًا مِنْ بِيوتِنَا. قَالَتْ: وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأَوَّلِ فِي الْبَرِّيَّةِ قَبْلَ الْغَائِطِ، وَكُنَّا نَتَأَذَى بِالْكُنْفِ أَنْ تَتَّخِذَهَا عِنْدَ بِيوتِنَا.

قَالَتْ: فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ - وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرِ خَالَةَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أَثَاثَةَ بْنِ عَبَّادِ بْنِ الْمُطَّلِبِ - فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قَبْلَ بَيْتِي حِينَ فَرَعْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرْتُ أُمَّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا (٢) فَقَالَتْ:

(١) الكنيف: موضع قضاء الحاجة. والجمع كُنْف. ومن هنا قيل للوعاء الذي يحرز فيه الشيء: كنف، كقول عمر في ابن مسعود: كنيفٌ ملىءٌ علمًا. ويقال للبناء الساتر لما وراءه: كنيف. قال أهل اللغة: الكنيف الساتر مطلقًا، وسُمِّيَ به موضع الغائط لأنهم يستترون به.

قوله: وأمرونا أمر العرب الأول: تعني في التبرز خارج المدينة. وقولها: التنزه: أي طلب النزاهة بالخروج إلى الصحراء. قال الخطابي: والمتبرز: المكان الذي تُقضى فيه حاجة الإنسان، والبراز أيضًا اسم ذلك المكان، وبها سُمِّيَ الحدثُ برازًا، كما يسمَّى الحدثُ بالغائط، وهو المطمئن من الأرض. - قلت: وهذا من باب تسمية الشيء بمكانه كناية وحياء - قال: والتنزه: البعد عن البيوت، وكانوا يبعدون عنها عند حاجة الإنسان.

شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨ / ٤٣).

(٢) مرطها: المرط كساء من صوف، أو خز، يؤتزر به، وجمعه: مروط.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

تَعَسَ مِسْطَحٌ! (١) فَقُلْتُ: لَهَا بَيْسٌ مَا قُلْتَ، أَتُسَبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا! فَقَالَتْ: أَيُّ هَتَّاهُ (٢)، وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟

(١) تعس الإنسان: أي عثر. ويقال في الدعاء على الإنسان: تعس فلان، أي: سقط لوجهه. ومنه حديث: «تعس عبد الدينار..» فقولها: تعس مسطح أي كُبَّ لوجهه، أو هلك.

(٢) قال الحافظ: قال أبو محمد بن أبي حمزة: يحتمل أن يكون قول أم مسطح هذا عمدًا، لتتوصل إلى إخبار عائشة بما قيل فيها وهي غافلة، ويحتمل أن يكون اتفاقًا أجراه الله على لسانها، لتستيقظ عائشة من غفلتها عما قيل فيها.

وقولها: هتاه: أي حرف نداء للبعيد، وقد يستعمل للقريب حيث ينزل منه منزل البعيد. والنكته فيه هنا: أن أم مسطح نسبت عائشة إلى الغفلة عما قيل فيها، لإنكارها سب مسطح، فخاطبتها خطاب البعيد. الفتح: (٤٦٧ / ٨) وقال النووي: وفي رواية: يا هتاه. قال أهل اللغة: هذه اللفظة تختص بالنداء، ومعناها: يا هذه. وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكائد الناس وشروهم. ويقال في الثنية: هتان، وفي الجمع: هنات وهنوات.

وفي المذكر: هن، وهنان، وهنون، ولك أن تلحقها الهاء لبيان الحركة فتقول: يا هنه، وأن تشبع الحركة فتصير ألفا فتقول: يا هناه، ولك ضمُّ الهاء فتقول: يا هناه أقبيل. شرح النووي على مسلم (١٧ / ١٠٧).

حديث الإفك: عبراتٌ وعبرٌ

فَأَخْبَرْتَنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي (١)، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تَيْكُمُ؟» فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هُوَ نِي عَلَيْكَ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةً قَطُّ وَضِيئَةً (٢) عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثُرْنَ عَلَيْهَا (٣). قَالَتْ:

= قلت: ولغة العامة في نجد: هُنَّ للمفرد المذكور، وهنَّ للمفردة المؤنثة، وكما ترى لها أصل صحيح.

(١) قال الحافظ: وعند الطبراني بإسناد صحيح، عن أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة قالت: لما بلغني ما تكلموا به؛ هممتُ أن آتي قليلاً فأطرح نفسي فيه. وأخرجه أبو عوانة أيضاً. الفتح: (٤٦٧ / ٨).

(٢) وضيئة: الوضاعة: الحسن، ووضيئة: فعيلة بمعنى: فاعلة. وقال النووي: وفي نسخة ابن ماهان حظيئة، من الحظوة، وهي الوجاهة، يقال حظيت المرأة عند زوجها: أي سعدت به، وذنبت من قلبه، وأحبَّها.

(٣) ضرائر: جمع ضرة، وزوجات الرجل ضرائر؛ لأن كل واحدة تتضرر بالأخرى بالغيرة والقسم.

قال الحافظ: وفي هذا الكلام من فطنة أمها، وحسن تأتيها في تربيتهما ما لا مزيد عليه، فإنها علمت أن ذلك يعظم عليها، فهونت عليها الأمر بإعلامها بأنها لم تنفرد بذلك، لأن المرء يتأسى بغيره فيما يقع له، وأدجت =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ^(١)، أَوْلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟! قَالَتْ: فَبَكَيْتُ
تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرِقَ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ!^(٢) ثُمَّ
أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ
حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيَ، يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا
أَسَامَةُ، فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ،

= في ذلك ما تُطَيَّبُ به خاطرها من أنها فائقة في الجمال والحظوة، وذلك مما
يعجب المرأة أن توصف به، مع ما فيه من الإشارة إلى ما وقع من حمنة
بنت جحش، وأن الحامل لها على ذلك كون عائشة ضرة أختها زينب
بنت جحش، وعرف من هذا أن الاستثناء في قولها: «إلا أكثرن عليها»
متصل، لأنها لم تقصد قصتها بعينها، بل ذكرت شأن الضرائر، وأما
ضرائرها هي فإئمن وإن كن لم يصدر منهن في حقها شيء مما يصدر من
الضرائر، لكن لم يعدم ذلك ممن هو منهن بسبيل كما وقع من حمنة، لأن
ورع أختها منعها من القول في عائشة، كما منع بقية أمهات المؤمنين، وإنما
اختصت زينب بالذكر، لأنها التي كانت تضاهي عائشة في المنزلة. الفتح
(٨/٤٦٨).

- (١) استغاثت بالله متعجبة من وقوع مثل ذلك في حقها، مع براءتها المحققة
عندها، ومنزهة ربهما أن يختار لنبهه الطيب غير الطيبة.
(٢) قولها: لا يرقأ: لا ينقطع. ولا أكتحل بنوم: أي لا أنام.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

وَبِالَّذِي يَعْلَمُ هُمْ فِي نَفْسِهِ (١)، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ (٢)، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ (٣)، وَسَلَّ الْجَارِيَةَ تَصَدُّقَكَ. قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) يعلم لهم: أي من الودّ.

(٢) أهلك: أي ألزم أهلك. وإطلاق الأهل على الزوجة شائع. والجمع هنا لتعظيم أمرها.

(٣) أثار عليٌّ رضي الله عنه جانب النبي ﷺ لما رآه مغتمًا، مع ما يعلم من شدة غيرته ﷺ، فرأى أنه إذا فارقها سكن ما عنده، ثم راجعها عند تحقّق براءتها، ولم يُرد بقوله ذلك عيبًا ولا نقصًا. قاله ابن أبي جمرة وغيره. عن الفجر الساطع (٩٧/٣).

قال الحافظ: ويستفاد من مشورة علي ارتكاب أخفّ الضررين لذهاب أشدهما. وقال الثوري: رأى ذلك هو المصلحة في حقّ النبي ﷺ، واعتقد ذلك لما رأى من انزعاجه، فبذل جهده في النصيحة لإرادة راحة خاطره ﷺ. وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: لم يجزم علي بالإشارة بفراقها، لأنه عقب ذلك بقوله: وسل الجارية تصدّقك، ففوّض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ، فكأنه قال: إن أردت تعجيل الراحة ففارقها، وأن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها، لأنه كان يتحقّق أن بريرة لا تخبره إلا بما علمته، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضّة.

=

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= والعلّة في اختصاص علي وأسامة بالمشاورة: أن علياً كان عنده كالولد، لأنه ربّاه من حال صغره، ثم لم يفارقه، بل وازداد اتصاله بتزويج فاطمة، فلذلك كان مخصوصاً بالمشاورة فيما يتعلق بأهله لمزيد اطلاعه على أحواله أكثر من غيره. وكان أهل مشورته فيما يتعلق بالأمر العامة أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر، وأما أسامة فهو كعليّ في طول الملازمة، ومزيد الاختصاص والمحبة، ولذلك كانوا يطلقون عليه أنه حبّ رسول الله ﷺ، وخصّه دون أبيه وأمه لكونه كان شاباً كعليّ، وإن كان عليّ أسنّ منه، وذلك أن للشباب من صفاء الذهن ما ليس لغيره، ولأنه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المسنّ، لأن المسنّ غالباً يحسب العاقبة، فربما أخفى ما يظهر له رعاية للقائل تارة والمسؤول عنه أخرى. الفتح: (٨/٤٦٩).

ولقد ظلم من اتهم علياً رضي الله عنه بالإفك لقوله هذا. قال الحافظ: وكأنّ بعض من لا خير فيه من الناصبة - أي الذين ناصبوا أهل البيت العداء - تقرب إلى بني أمية بهذه الكذبة، فحرفوا قول عائشة إلى غير وجهه، لعلمهم بانحرافهم عن علي، فظنوا صحتها، حتى بين الزهري للوليد أن الحق خلاف ذلك، فجزاه الله تعالى خيراً. وقد جاء عن الزهري أن هشام بن عبد الملك كان يعتقد ذلك أيضاً، فقد أخرج يعقوب بن شيبة في مسنده عن الحسن بن علي الحلواني عن الشافعي قال: حدثنا عمي قال: دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك فقال له: يا سليمان، الذي تولّى كبره من هو؟ قال: عبد الله بن أبي. قال: كذبت، هو عليّ. =

بَرِيرَةَ^(١) فَقَالَ: «أَيُّ بَرِيرَةَ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيْبِكِ؟» قَالَتْ لَهُ

= قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول. فدخل الزهري فقال: يا بن شهاب، من الذي تولى كبره؟ قال: ابن أبي. قال: كذبت، هو علي. فقال: أنا أكذب لا أبالك، والله لو نادى مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت، حدثني عروة وسعيد وعبيد الله وعلقمة عن عائشة: أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي فذكر له قصة مع هشام في آخرها: نحن هيجنا الشيخ، هذا أو معناه. فتح الباري (٨ / ٤٥٥).

(١) وكانت تخدم عائشة بأجرة، وهي في رقٍّ مواليتها قبل شرائها منهم على الراجح، فإنها عتقت بعد الفتح، وهذا أولى من دعوى الإدراج وتغليط الحفاظ، وكلما أمكن الجمع بين الروايات اتبع، وهذه هي الجادة المتبعة عند الأئمة الحفاظ.

وبَرِيرَةَ: هي مولاة كانت لبعض الأنصار كاتبوها، فأدّت عنها أمنا عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَأَعْتَقْتَهَا، فصارت مولاة لها. وقصتها في «الصحيحين» وغيرهما من حديث عائشة وغيرها، وهي التي جاء فيها الحديث: «الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ» وكانت بريرة تخدم عائشة قبل أن تعتق كما في حديث الإفك، وعاشت إلى خلافة معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وتفرّست في عبد الملك بن مروان أنه يلي الخلافة، فبشرته بذلك. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا خَيْرَتِ بَرِيرَةَ، رَأَيْتُ زَوْجَهَا يَتْبَعُهَا فِي سِكَكِ الْمَدِينَةِ، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى خَدَّيْهِ، فَكَلَّمَ الْعَبَّاسَ لِيُكَلِّمَ فِيهِ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِبَرِيرَةَ: «إِنَّهُ زَوْجُكِ» قالت: تَأْمُرُنِي بِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ» قال: =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ^(١)، غَيْرُ

= فخيرها، فَاخْتَارَتْ نَفْسَهَا. وفي البخاري: قالت: لا حاجة لي فيه. وكان عَبْدًا لآلِ الْمَغِيرَةِ، يُقَالُ لَهُ: مُغِيثٌ. وفي رواية في الصحيحين: «يا عباسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثِ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟!» رواه أحمد (١٨٤٤) والبخاري (٤٦٧/٣).

قلت: وفي أخبارها فوائد فقهية عديدة، في أبواب الشروط والعتق والنكاح وغيرها. وانظر ترجمتها في: الإصابة ٥٣٥/٧ - ٥٣٦

(١) قال الحافظ: وفي رواية حماد بن سلمة عن هشام بن عروة عند الطبراني: فقال: لست عن هذا أسألك، فلما فَطِنْتُ قالت: سبحان الله! وهذا يدل على أن المراد بقوله في الرواية: حتى أسقطوا لها به: أي حتى صرّحوا لها بالأمر، فلهذا تعجبت. وقال ابن الجوزي: أسقطوا لها به: أي صرّحوا بها بالأمر. أي: ذكروا لها الحديث وبينوه، فعند ذلك قالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر. إنكاراً أو إعظاماً أن تنطق بمثل هذا القول عمّن اختارها الله زوجاً لأطيب خلقه وأفضلهم، وجعلها أحبّ إليه من جميع نساء العالمين، ولا يجوز أن تكون إلا طيبة مثله. ثم قالت: سوى أنها جارية حديثه السن، تنام عن عجين أهلها. في رواية ابن إسحاق: ما كنت أعيب عليها إلا أني كنت أعجن عجيني، وأمرها أن تحفظه، فتنام عنه. وفي رواية مقسم: ما رأيت منها مُدٌّ كنت عندها إلا أني عجنت عجيناً لي، فقلت: احفظي هذه =

أُمَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثُهُ السِّنُّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ (١)

= العجينة حتى أقتبس ناراً لأخبزها، فغفلت، فجاءت الشاة فأكلتها. قال ابن المنير في الحاشية: هذا من الاستثناء البديع الذي يُراد به المبالغة في نفي العيب، فغفلتُها عن عجينها أبعدُ لها من مثل الذي رميت به، وأقرب إلى أن تكون من الغافلات المؤمنات. وكذا في قولها في رواية هشام بن عروة: ما علمت إلا ما يعلم الصائغ على الذهب الأحمر، أي كما لا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر إلا الخلوص من العيب، فكذلك أنا لا أعلم منها إلا الخلوص من العيب. وفي رواية ابن حاطب عن علقمة: فقالت الجارية الحبشية: والله لعائشة أطيبُ من الذهب، ولئن كانت صنعتُ ما قال الناس ليخبرتك الله. قالت: فعجب الناس من فقهها. الفتح - مختصراً -: (٤٧٠ / ٨).

وقولها: أغمصه: الغمص: العيب، ومن اشتقاقاته الغمز، فهما من أحرف الصفير.

وفي قولها: ما أعلم عليها شيئاً أغمصه، دليل على أن من اتهم في دينه بأمر، أنه يُطلب في سائر أحواله نظير ما أُتهم به، فإن لم يوجد له نظير لم يصدق عليه ما اتهم فيه، وإن وجد لذلك نظير قويت الشبهة، وحُكِمَ عليه بالتهمة في أغلب الحال لا في الغيب. قاله ابن بطال في شرحه لصحيح البخاري (٣٩ / ٨).

(١) الداجن: الشاة التي تألف البيت وتقيم به، ولا تخرج للمرعى، يقال: =

قالت: فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي وهو على المنبر^(١)، فقال: «يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي؟ والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما يدخل على أهلي إلا معي»

= دجن بالمكان، إذا أقام به. وزاد ابن التين: الدجاج، والحمام والوحش والطيور ونحوها مما تألف البيوت، كما هي لغة العامة في هذا الزمان بقولهم: دواجن.

(١) وفي رواية عطاء الخرساني عن الزهري بزيادة: وكانت أم أيوب الأنصارية قالت لأبي أيوب: أما سمعت ما يتحدث الناس؟ فحدثته بقول أهل الإفك. فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم. وفي مرسل سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ من قال ذلك - أي ما يكون لنا أن نتكلم بهذا... - وروى الطبري أيضا من طريق بن إسحاق حدثني أبي عن بعض رجال بني النجار أن أبا أيوب قالت له أم أيوب: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟! قالت: لا، والله. قال: فعائشة والله خير منك. قالت: فنزل القرآن: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ الآية. قلت: وفي هذا سلامة قلبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسن ظنه بالمؤمنين، وحزمه في تربية أهله.

قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ (١) - أَخُو بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ - فَقَالَ: أَنَا يَا

(١) «من يعذرني..» قال صاحب بن عباد في المحيط في اللغة: (١ / ٨٤): وَعَدْرْتُهُ مِنْ فُلَانٍ: أَي لَمْتُ فُلَانًا وَلَمْ أَلْمُهُ، وَهُوَ الْعَدِيرُ؛ تَقُولُ: مَنْ عَدِيرِي مِنْ فُلَانٍ: أَي مَنْ يَعْدِرُنِي مِنْهُ. وَيَقُولُ الرَّجُلُ لِلْآخِرِ: أَلَا تَعْدِرُنِي مِنْ فُلَانٍ، وَإِنَّمَا هُوَ شَيْءٌ يَتَقَدَّمُ بِهِ إِلَيْهِ، أَي إِنَّهُ يَظْلِمُنِي، وَإِنَّمَا يَسْتَعْدِرُ خَافَةَ الْمَلَامَةَ. وَعَدِيرُكَ مِنْ فُلَانٍ: أَي هَاتِ مَنْ يَعْدِرُكَ مِنْهُ. وَعَدِيرُ الرَّجُلِ: مَا يَرُومُ مِمَّا يُعْذَرُ عَلَيْهِ. وَهُوَ حَالُهُ أَيْضًا. وَالْجَمِيعُ: الْعُدْرُ. وَمَا عِنْدَهُ عَدِيرَةٌ وَلَا غَفِيرَةٌ: أَي لَا يَعْدِرُ وَلَا يَغْفِرُ. وَأَعْدَرَ: أَتَى بِمَا يُعْذَرُ عَلَيْهِ. وَفِي مَقَالِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ السِّيُوطِيُّ فِي الدِّيْبَاجِ: اسْتَدَلَّ بِهِ الْقَاضِي عَلَى أَنْ غَزَاةَ الْمَرِيْسِيِّ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا قِصَّةُ الْإِفْكِ كَانَتْ سَنَةَ أَرْبَعٍ قَبْلَ قِصَّةِ الْخَنْدَقِ، فَإِنَّ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ مَاتَ فِي أَثَرِ غَزَاةِ الْخَنْدَقِ مِنَ الرَّمِيَةِ الَّتِي أَصَابَتْهُ. قَالَ النَّوَوِيُّ وَهُوَ صَحِيحٌ.

وإلى شيء من سيرة السعدين وأسيد رضوان الله عليهم:

أما سعد بن معاذ فهو سيّد الأوس، وهو ابن النعمان بن امرئ القيس ابن زيد بن عبد الأشهل الأوسي الأنصاري، أسلم على يد مصعب بن عمير لما أرسله النبي ﷺ إلى المدينة يُعَلِّمُ الْمُسْلِمِينَ، شهد بدرًا وأحدًا والخندق، ورماه يومئذ حبان بن عرقه في أكحله، فهات من جرحه بعد أيام بعد حكمه الشهير في حلفائه يهود لما غدروا، وهو الذي اهتز لموته عرش الرحمن فرحًا بروحه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان نبي الله ﷺ به حفيًا. =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وأما سعد بن عبادة سيّد الخزرج، فهو ابن دليم بن حارثة بن أبي حَزِيمَةَ الخزرجي الأنصاري. وأُمُّ الأوس والخزرج قَيْلَةُ بنت كاهل. وكان سعد بن عبادة نقيب بني ساعدة، وقد شهد بدرًا — عند بعضهم — ولم يبايع أبا بكر ولا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا — وبذلك استدل شيخ الإسلام على أن البيعة تنعقد بالسواد الأعظم من أهل الحل والعقد، ولا يشترط لها إجماعهم — وهو من كرماء العرب وساداتهم المعدودين، ولما مرض ثَقَلُ الناس عن عيادته، فسأل فقيل: ما منهم من أحد إلا ولك عليه دين، فأرسل صارحًا: أن كل الناس في حلٍّ من ديونه عليهم، فلم تمس عتبة بابه إلا منكسرة من ازدحام الناس لعيادته، وسار إلى الشام فأقام بحوران إلى أن مات سنة خمس عشرة، ولم يختلفوا أنه وجد ميتًا على مغتسله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرضاه، واشتهر أن الجن قتلتها لما بال في جحر، ولم يثبت ذلك الزعم.

هذا، وإذا أطلق السعدان فهما سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وكلاهما أسلم على يد داعية الإسلام المحنك مصعب بن عمير، ولما كانا سيّدا قومهما فشا فيهم الإسلام بحمد الله وكثر وعزّ جدًا. حتى أن الجن المسلمين استبشروا بذلك، فأغاظوا مشركي مكة وأفرحوا مُسلميها بهتافهم، ومن ذلك ما ذكره الماوردي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وغيره في أعلام النبوة: (١/١٨٦) قال: و من بشائر هتوفهم — أي الجن —: ما حكاه أبو عيسى قال: سَمِعْتُ قريشًا في الليل هاتفًا على أبي قبيس يقول — وإذا أطلق الهاتف فهو كلام الجن وألحق بعضهم به الملائكة —:

= فإن يُسلم السَّعدان يصبِحُ محمدٌ بمكة لا يخشى خلافَ مخالفٍ
 فلما أصبحوا قال أبو سفيان: من السَّعدان، سعد بكر، وسعد تميم؟ فلما
 كان في الليلة الثانية سمعوه يقول:
 أيا سعدُ سعد الأوس كُن أنتَ ناصرًا ويا سعدُ سعد الخزرجين العطارِفِ
 أجيبا إلى داعي الهدى وتمنِّيا على الله في الفردوسِ مُنية عارفِ
 فإنَّ ثوابَ الله للطالبِ الهدى جَنانٌ من الفردوسِ ذاتُ زخارفِ
 فلما أصبحوا قال أبو سفيان: هما والله سعد بن معاذ و سعد بن عبادة.
 وفي البخاري عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت:
 كان يوم بُعثَ يوماً قدَّمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد
 افترق ملؤهم، وقُتِلَتْ سَرَواتُهُم، وجُرِّحُوا، قدَّمه الله لرسوله في دخولهم
 الإسلام. (البخاري: ٣٧٧٧) والسروات: جمع سريٍّ وهو السيد
 الشريف المطاع. وكان على الأوس يوم بُعثَ وقد انتصرت يوم ذاك
 حضير بن سماك الأشهلي أبو أسيد بن حضير، وعلى الخزرج عمرو بن
 النعمان البياضي فقتلا جميعًا.
 قلت: ومن تقدِّمة ذلك رئاسةُ السعدين، ولم يكونا من كبار السن،
 فشرَّحُ الشباب مُؤذِنٌ بقبول الحق، والانصياع للهدى، خلافًا للشيخ
 الكبير، فإنه لا يكاد يترك مذهبه، ولو استبان ضلاله! كذلك فقد كانت
 الأوس والخزرج تتشرف حينها لمن يجمع عصاها جميعًا إذ ملَّت وكلَّت
 القتال والخوف، لذا فقد كانت يهود تُعدُّ حليفها الفاجر عبد الله ابن أبي
 ابن سلول لتملِّكه على بني قيلة، ويأبى الله إلا أن يأتيهم من يسوسهم
 = سياسة الأنبياء الكُمَّل، لا الملوك الجبابرة.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= قال ابن إسحاق في سيرته: ومرّ شأس بن قيس، وكان شيخاً يهودياً قد عسا، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فقال: قد اجتمع ملاً بني قيلة بهذه البلاد! لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار. فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعثت وما كان قبله، وأنشدوهم بعض ما كانوا تناولوا فيه من الأشعار. ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواتب رجالان من الحيين على الركب، فتناولوا ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جدعة! فغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - والظاهرة الحرة - السلاح السلاح! فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: «يا معشر المسلمين، الله الله، أبدو الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف به بين قلوبكم؟!» فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله =

= شأس بن قيس. فأنزل الله تعالى في شأس بن قيس وما صنع: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكُتُبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكُتُبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ وأنزل الله في من كادوا يقتتلون على أمر الجاهلية بكيد عدوهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكُتُبَ يَرُدُّوكُم بِدِئَابِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۗ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٨-١٠٥] وانظر: الروض الأنف: (٤١٦).

وفي المعجم الكبير (٦ / ٧): أن سعد بن معاذ لما رُمي في أكحله قال: رب اشفني من بني قريظة قبل الممات. فرقا الكلم بعدما قد انفجر - أي التأم الجرح - قال: وأقام النبي ﷺ على بني قريظة - أي محاصراً - حتى سأله أن يجعل بينه وبينهم حكماً ينزلون على حكمه، فقال رسول الله ﷺ: اختاروا من أصحابي من أردتم فلنستمع لقوله. فاختاروا سعد بن معاذ، فرضي به رسول الله ﷺ، وسلموا. وأمر رسول الله ﷺ بأسلحتهم فجعلت في بيت، وأمر بهم فكتفوا وأوثقوا، فجعلوا في دار أسامة بن زيد، وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ فأقبل على حمارٍ أعرابي، يزعمون أن وطاءه برذعة من ليف، واتبعه رجل من بني =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= عبد الأشهل فجعل يمشي معه يُعْظِمُ حَقَّ بني قريظة، ويذكرُ حِلْفَهُم والذي أبلوه يوم بعاث، وأنهم اختاروك على من سواك، رجاء عطفك وتحننك عليهم، فاستبقهم فإتهم لك حِمَالٌ وَعَدَدٌ - وتأمل عظيم وقع هذا الكلام لو كان عند غير سعد الذي أراد وجه الله والدار الآخرة - قال: فأكثر ذلك الرجل ولم يجر إليه سعد شيئاً، حتى دنوا فقال له الرجل: ألا ترجع إلي شيئاً؟ فقال سعد: والله لا أبالي في الله لومة لائم، ففارقه الرجل فأتى إلى قومه قد يئس من أن يستبقهم، وأخبرهم بالذي كلمه به، والذي رجع إليه، - أي نعاهم إليهم - ونفذ سعد حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا سعد، احكم بيننا وبينهم. فقال سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أحكم فيهم: بأن تُقتل مقاتلتهم، ويُغتَنم سبيهم، وتؤخذ أموالهم، وتسبى ذراريهم ونسأؤهم. فقال رسول الله ﷺ: «حكم فيهم سعد بن معاذ بحكم الله».

فأخرجوا رسلاً رسلاً فضربت أعناقهم، وأخرج حيي بن أخطب فقال له رسول الله ﷺ: «هل أخزأك الله؟» فقال: قد ظهرت علي، وما ألوُم نفسي فيك! فأمر به رسول الله ﷺ فأخرج إلى أحجار الزيت التي بالسوق فضربت عنقه.

قال ابن إسحاق في السيرة النبوية (٤ / ٢٠٠): ثم استنزلوا، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة، في دار بنت الحارث امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، فخذق بها خنادق، ثم بعث إليهم فضربت أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالاً وفيهم =

= عدو الله حيي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم، وهم ستمئة أو سبعمئة والمكثر لهم يقول كانوا بين الثمانمئة والتسعمئة. وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً - أي جماعات قليلة - : يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون، ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل! فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ. وأتى بحيي بن أخطب عدو الله، وعليه حلّه له قفاحية - أي موشاة - قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة، لئلا يُسلبها، مجموعةٌ يدها إلى عنقه بحبل، فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لمت نفسي في عدواتك، ولكنه من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، ملحمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل! ثم جلس، فضربت عنقه.

قال ابن إسحاق: وقد كان ثابت بن قيس بن الشماس كما ذكر لي ابن شهاب الزهري، أتى الزبير بن باطا القرظي، وكان يكنى أبا عبد الرحمن، - قلت: فقد كانت اليهود تعرف هذا الاسم الحسن - وكان الزبير قد منّ على ثابت بن قيس بن شماس في الجاهلية. ذكر لي بعض ولد الزبير أنه كان منّ عليه يوم بعث، أخذه فجزّ ناصيته ثم خلّى سبيله. فجاءه ثابت وهو شيخ كبير، فقال: يا أبا عبد الرحمن هل تعرفني؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك، قال: إني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي، قال: إن الكريم يجزي الكريم. ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله ﷺ فقال: يا

حديث الإفك: عبرات وعبر

= رسول الله، إنه قد كانت للزبير علي منة، وقد أحببت أن أجزيه بها، فهب لي دمه، فقال رسول الله ﷺ: هو لك، فأتاه فقال: إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك، فهو لك، قال: شيخ كبير، لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ قال: فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هب لي امرأته وولده، قال هم لك. قال: فأتاه فقال: قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك، فهم لك. قال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟ فأتى ثابت رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ماله، قال: هو لك. فأتاه ثابت فقال: قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك، فهو لك، قال: أي ثابت، ما فعل الذي كأن وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحي كعب بن أسد؟ قال: قتل، قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي حبي بن أخطب؟ قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا، عزال بن سموأل؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان؟ يعني بني كعب بن قريظة، وبني عمرو بن قريظة؟ قال ذهبوا، قتلوا. قال: فإني أسألك يا ثابت، بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم! فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله قتلة دلو ناضح، حتى ألقى الأحبة! فقدّمه ثابت فضرب عنقه. فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله ألقى الأحبة، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالدًا مخلدًا.

وعن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: لم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تحدث معي، وتضحك =

= ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتلُ رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة؟ قالت: أنا والله. قالت: قلت لها: ويلك ما لك؟ قالت: أُقْتَل! قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته. قالت: فانطلق بها فضرب عنقها. فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجبًا منها طيبَ نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عَرَفْتُ أنها تقتل. قال ابن هشام: هي التي طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته.

وقد كان جرحُ سعد قد برئ، ثم إنه دعا فقال: اللهم رب السموات والأرض، إنه لم يكن في الأرض قوم أبغض إلي من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، وأني أظن أن قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقي بيننا وبينهم قتال فأبقي أقاتلهم فيك، وأن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرُ هذا المكان، واجعل موتي فيه، ففجره الله تبارك وتعالى وإنه لراقد بين ظهري الليل، فما دروا به حتى مات رحمه الله ورضي عنه.

وأما أسيد بن حُضَيْر، فهو ابن سماك بن عتيك بن امرئ القيس الأشهلي الأوسي الأنصاري، أبو يحيى، أسلم على يد مصعب بن عمير بالمدينة بعد العقبة الأولى وقيل الثانية، في قصة جميلة تدل على حُسنِ تأتِي مصعبٍ للناس في دعوتهم إلى الله تعالى. واختُلف في شهوده بدرًا، فنفاه ابن إسحاق والكلبي، وأثبتته غيرهما، وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، وشهد مع عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فتح بيت المقدس. وهو من أبناء عمومة سعد بن معاذ، ولم يكادا يفترقان في جاهلية وإسلام، وهو القائل لعائشة في قصة نزول آية التيمم: ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر. وكان من شجعان الأنصار وساداتهم ومقدميهم، مات بالمدينة سنة عشرين، وصلى عليه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

=

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وفي قصة إسلامه هو وسعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِبْرٌ: فقد كان سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدي قومهما من بني عبد الأشهل، وكانا مشركين على دين قومهما، فلما سمعا بمصعب بن عمير ونشاطه في الدعوة إلى الإسلام قال سعد لأسيد: لا أبالك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما — أي مصعب وأسعد —، وانهما أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت كفتك ذلك، هو ابن خالتي ولا أجد عليه مقدماً، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال: هذا سيد قوم، وقد جاءك فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، فوقف عليهما متشتماً فقال: ماجاء بكما تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب بلسان المؤمن الهادئ الواثق من سماحة دعوته: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره؟ قال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالوا له: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق؟ ثم تصلي، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكم الآن: سعد بن معاذ.

= ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديتهم، فلما نظر إليه سعد مقبلاً قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم! - قلت: ذاك نور الإيمان وانبلاج الأسارير بِرَوْحِهِ - فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك - وفيه دهاء ابن حضير ليحفز حمية ابن معاذ فيلي الأمر بنفسه - فقام سعد مغضباً مبادراً مخوفاً للذي ذكر له من أمر بني حارثة، وأخذ الحربة في يده ثم قال: والله ما أراك أغويت شيئاً، ثم خرج إليهما سعد فوجدهما مطمئين، فعرف أن أسيداً إنما أراد أن يسمع منهما، فوقف متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمِّتَ هذا مني، أتغشانا في دارنا بما نكره؟! وكان أسعد قد قال لمصعب: لقد جاء والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف منهم اثنان، فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فقال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ القرآن، وذكر موسى بن عقبة أنه قرأ عليه أول سورة الزخرف، قالوا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله. ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟ قالوا: تغتسل، فتطهَّر وتطهَّر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

رَسُولَ اللَّهِ أَعْدِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الْخُزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ. قَالَتْ: فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْخُزْرَجِ - وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ^(١) بِنْتُ عَمِّهِ مِنْ فَخْدِهِ^(٢) - وَهُوَ سَعْدُ بْنُ عَبَادَةَ،

=
تصلي ركعتين، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، ثم تشهد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته فأقبل عائداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، فلما رآه قومه مقبلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيية، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما أيمن نقييته -

ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون ونساء مسلمات، إلا ما كان من الأصيرم، وهو عمرو بن ثابت بن وقش، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد فأسلم، واستشهد بأحد، ولم يصل لله بسجدة قط، وأخبر رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة.

(١) واسمها فريعة بنت خالد بن خنيس الأنصارية، والدة حسان بن ثابت، وإليها كان ينسب، فيقال: قال ابن الفريعة. ذكرها ابن سعد في

المبايعات. ترجمتها في: الطبقات: (٢/٢٧١) والإصابة: (٧٣/٨).

(٢) من فخذة: عند النسابة الفخذُ في العشائر أقلُّ من البطن، أولها: الشعب، =

حديث الإفك: عَبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ
احْتَمَلَتْهُ^(١) الْحَمِيَّةُ فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ
عَلَى قَتْلِهِ^(٢)، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ
حُضَيْرٍ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ - فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللَّهِ
لَنَقْتُلَنَّه^(٣)، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ^(٤) مُجَادِلٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ^(٥) قَالَتْ:

- = ثم القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ. قال الحافظ:
وقولها من فخذها بعد قولها بنت عمه: إشارة إلى أنها ليست بنت عمه لها،
لأن سعد بن عبادة يجتمع معها في ثعلبة.
- (١) وفي لفظ بالجيم، اجتهدته: أي استخففته وأغضبته وحملته على الجهل. أما
بالحاء احتملته فمعناها: أغضبته. يقال: احتمل الرجل، إذا غضب.
والروايتان صحيحتان. والاجتهال: افتعال من الجهل، أي: حملته الحمية،
وهي الأنفة والغضب على الجهل، واحتملته: افتعلته من الحمل.
- (٢) ولا تقدر: يعني أن النبي ﷺ لم يجعله إليك. الفجر الساطع (٣ / ٩٨)
- (٣) لنقتلنه: أي إن أمرنا النبي ﷺ بقتله.
- (٤) منافق: قاله مبالغة في زجر سعد، وحاشاه من ذلك، بل هو من خيار
الصحابة وأجلتهم وكرمائهم وشجعانهم وساداتهم.
- (٥) قال شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى (٧ / ٥٢٢ - ٥٢٥) في هذا
الشأن المشكل عند كثير من الناس: إن شعب الإيثار قد تتلازم
عند القوة، ولا تتلازم عند الضعف، فإذا قوي ما في القلب من التصديق =

حديث الإفك: عبرات وعبر

= المعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله. كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ وقال: ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾

وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنباً ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافراً، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل الله فيه: ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَنخِذُوا عِدْوِي وَعِدْوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ ﴾ وكما حصل لسعد بن عباد لما انتصر لابن أبي في قصة الإفك فقال لسعد بن معاذ: كذبت والله؛ لا تقتله ولا تقدر على قتله، قالت عائشة: وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية. ولهذا الشبهة سمى عمر حاطباً منافقاً فقال: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه شهد بدرًا» فكان عمر متأولاً في تسميته منافقاً للشبهة التي فعلها. وكذلك قول أسيد بن حضير لسعد بن عباد: كذبت لعمر الله لنقتلته، إنما أنت منافق تجادل عن المنافقين، هو من هذا الباب. وكذلك قول من قال من الصحابة عن مالك بن الدخشم: منافق. وإن كان قال ذلك لما رأى فيه من نوع معاشرة ومودة للمنافقين.

= ولهذا لم يكن المتهمون بالنفاق نوعاً واحداً، بل فيهم المنافق المحض، وفيهم من فيه إيمان ونفاق، وفيهم من إيمانه غالب وفيه شعبة من النفاق. وكان كثير ذنوبهم بحسب ظهور الإيـمان، ولما قوي الإيـمان وظهر الإيـمان وقوته عام تبوك؛ صاروا يعاتبون من النفاق على ما لم يكونوا يعاتبون عليه قبل ذلك.

ومن هذا الباب ما يروى عن الحسن البصري ونحوه من السلف؛ أنهم سمّوا الفساق منافقين؛ فجعل أهل المقالات هذا قولاً مخالفاً للجمهور، إذا حكوا تنازع الناس في الفاسق المي هل هو كافر؟ أو فاسق ليس معه إيمان؟ أو مؤمن كامل الإيـمان؟ أو مؤمن بما معه من الإيـمان، فاسق بما معه من الفسق؟ أو منافق والحسن رضي الله عنه تعالى لم يقل ما خرج به عن الجماعة، لكن سماه منافقاً على الوجه الذي ذكرناه.

والنفاق كالكفر؛ نفاق دون نفاق، ولهذا كثيراً ما يقال: كفر ينقل عن الملّة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر، كما يقال: الشرك شركان: أصغر وأكبر. وفي صحيح أبي حاتم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل» فقال أبو بكر: يا رسول الله، كيف ننجو منه وهو أخفى من ديب النمل؟ فقال: «ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجلّه؟ قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم» وفي الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من حلف بغير الله فقد أشرك» قال الترمذي حديث حسن.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وبهذا تبين أن الشارع ينفي اسم الإيمان عن الشخص لانتفاء كماله الواجب، وإن كان معه بعض أجزائه، كما قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» ومنه قوله: «من غشنا فليس منا، ومن حمل علينا السلاح فليس منا» فإن صيغة «أنا» و«نحن» ونحو ذلك من ضمير المتكلم في مثل ذلك يتناول النبي ﷺ والمؤمنين معه - الإيمان المطلق - الذي يستحقون به الثواب بلا عقاب. ومن هنا قيل: إن الفاسق المَلِيَّ يجوز أن يقال: هو مؤمن باعتبار، ويجوز أن يقال: ليس مؤمناً باعتبار. وبهذا تبين أن الرجل قد يكون مسلماً لا مؤمناً ولا منافقاً مطلقاً، بل يكون معه أصل الإيمان دون حقيقته الواجبة. ولهذا أنكر أحمد وغيره من الأئمة على من فسّر قوله ﷺ «ليس منا» ليس مثلنا، أو ليس من خيارنا، وقال: هذا تفسير المرجئة. وقالوا: لو لم يفعل هذه الكبيرة كان يكون مثل النبي ﷺ. وكذلك تفسير الخوارج والمعتزلة بأنه يخرج من الإيمان بالكلية، ويستحق الخلود في النار تأويل منكر كما تقدم، فلا هذا ولا هذا. انتهى. وانظر كذلك: الإيمان الأوسط لابن تيمية رحمه الله (١/ ١٣٨).

وقال رحمه الله في مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٢ - ٢٨٨) باختصار:

ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ أخطأ فيه، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة، فإن الله تعالى قال: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ

= أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء، وغفر للمؤمنين خطأهم. والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم؛ قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين. واتفق على قتلهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم. ولم يكفّرهم علي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتلهم، ولم يقاتلهم عليّ حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين؛ فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم، لا لأنهم كفار. ولهذا لم يسب حريمهم، ولم يغنم أموالهم.

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالتهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله بقتالهم؛ فكيف بالطوائف المختلفين، الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم؟! فلا يجل لأحد من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى، ولا تستحلّ دمها وماله وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضًا؟! وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ، والغالب أنهم جميعًا جهالٌ بحقائق ما يختلفون فيه.

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض، لا تحل إلا بإذن الله ورسوله. قال النبي ﷺ لما خطبهم في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا» وقال: «كل المسلم على المسلم حرام، =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= دمه وماله وعرضه» وقال: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ذمة الله ورسوله» وقال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه أراد قتل صاحبه» وقال: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» وقال: «إذا قال المسلم لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما» وهذه الأحاديث كلها في الصحاح.

وإذا كان المسلم متأولاً في القتال أو التكفير؛ لم يكفر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب بن أبي بلتعة: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟» وهذا في الصحيحين، وفيها أيضًا من حديث الإفك: أن أسيد بن الحضير قال لسعد بن عباد: إنك منافق تجادل عن المنافقين، واختصم الفريقان، فأصلح النبي ﷺ بينهم. فهؤلاء البدريون فيهم من قال لآخر منهم: إنك منافق، ولم يكفر النبي ﷺ لا هذا ولا هذا، بل شهد للجميع بالجنة.

وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلًا بعد ما قال لا إله إلا الله، وعظم النبي ﷺ ذلك لما أخبره وقال: «يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟» وكرر ذلك عليه، حتى قال أسامة: «تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ» ومع هذا لم يوجب عليه قودًا ولا ديةً ولا كفارةً؛ لأنه كان متأولاً ظن جواز قتل ذلك القاتل، لظنه أنه قالها تعوذًا. =

= فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضاً من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ فقد بين الله تعالى أنهم مع اقتتلهم وبغي بعضهم على بعض إخوة مؤمنون وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل.

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالي بعضهم بعضاً موالاة الدين، لا يعادون كمعاداة الكفار، فيقبل بعضهم شهادة بعض، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض، ويتوارثون، ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ سأل ربه أن لا يهلك أمته بسنة عامة فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فأعطاه ذلك، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فلم يعط ذلك، وأخبر أن الله لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم يغلبهم كلهم، حتى يكون بعضهم يقتل بعضاً، وبعضهم يسبي بعضاً. وثبت في الصحيحين لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك» ﴿أَوْ يَلْسِكُمْ شِعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: «هاتان أهون».

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= هذا مع أن الله أمر بالجماعة والائتلاف، ونهى عن البدعة والاختلاف، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ وقال النبي ﷺ: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة» وقال: «الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد» وقال: «الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، والذئب إنما يأخذ القاصية والنائية من الغنم». فالواجب على المسلم إذا صار في مدينة من مدائن المسلمين أن يصلي معهم الجمعة والجماعة، ويوالي المؤمنين ولا يعاديهم، وإن رأى أى بعضهم ضالاً أو غاوياً وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وإذا كان قادراً على أن يولي في إمامة المسلمين الأفضل ولاه، وإن قدر أن يمنع من يظهر البدع والفجور منعه. وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعم بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنناً». وإن كان في هجره لمُظهِرِ البدعة والفجور مصلحةً راجحةً هجره، كما هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلفوا حتى تاب الله عليهم. وأما إذا ولى غيره بغير إذنه، وليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية؛ كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلاً وضلالاً، وكان قد ردّ بدعة ببدعة. حتى إن المصلي الجمعة خلف الفاجر اختلف الناس في إعادته الصلاة، وكرهها =

= أكثرهم حتى قال أحمد بن حنبل في رواية عبدوس: من أعادها فهو مبتدع. وهذا أظهر القولين لأن الصحابة لم يكونوا يعيدون الصلاة إذا صلوا خلف أهل الفجور والبدع، ولم يأمر الله تعالى قط أحدًا إذا صلى كما أمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة.

وبالجمله؛ فالمتأول والجاهل المعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر، بل قد جعل الله لكل شيء قدرًا.

وقال رَحِمَهُ اللهُ في المستدرک علی مجموع الفتاوى (١ / ١٣١ — ١٣٣) في كلامه على الإيمان المطلق والمقيد وضرب أمثله ثم قال: ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة، ينتفي الاسم عن المسمى تارة لنفي حقيقته وكماله، ويثبت له تارة لوجود أصله وبعضه؛ حتى يقال للعالم القاصر، والصانع القاصر: هذا عالم وهذا صانع، بالنسبة إلى من لا يعلم وإلى من لا يصنع. ويقال: هذا ليس بعالم ولا صانع، لوجود نقصه وتقصيره. ويقال للكامل: هو العالم والصانع، وهذا هو الشجاع، وأمثاله كثيرة من الأسماء والصفات: كالمؤمن، والكافر، والفاسق، والمنافق.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في المدارج (١ / ٣٢٨): وأيضًا فإنه يعفى للمحب، ولصاحب الإحسان العظيم، ما لا يُعفى لغيره، ويُسامح بما لا يسامح به غيره. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: انظر إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه، رَمَى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده فكسرها! وجرَّ بلحية نبيِّ مثله وهو هارون! ولَطَمَ عينَ =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

فَشَارَ (١) الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْحَزْرَجُ حَتَّى هُمُومًا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللَّهِ

= مَلِكُ الْمَوْتِ فَفَقَّأَهَا! وَعَاتَبَ رَبَّهُ لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ فِي مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَفَعَهُ عَلَيْهِ! وَرَبُّهُ تَعَالَى يَحْتَمِلُ لَهُ ذَلِكَ كُلَّهُ، وَيُحِبُّهُ، وَيُكْرِمُهُ، وَيُدَلِّلُهُ، لِأَنَّهُ قَامَ لِلَّهِ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ الْعَظِيمَةَ، فِي مَقَابِلَةِ أَعْدَى عَدُوِّ لَهُ، وَصَدَعَ بِأَمْرِهِ، وَعَالَجَ أُمَّتِي الْقَبِطَ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالَجَةِ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْأُمُورُ كَالشَّعْرَةِ فِي الْبَحْرِ. وَانظُرْ إِلَى يُونُسَ بْنِ مَتَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ هَذِهِ الْمَقَامَاتِ الَّتِي لِمُوسَى غَاظِبَ رَبَّهُ مَرَّةً، فَأَخَذَهُ وَسَجَنَهُ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ، وَلَمْ يَحْتَمِلْ لَهُ مَا احْتَمَلَ مُوسَى.

وَقَالَ أَيْضًا فِي الْمُدَارِجِ: (٢/٤٥٦): وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ يَقُولُ: وَكَذَلِكَ لَطَمَ مُوسَى عَيْنَ مَالِكِ الْمَوْتِ فَفَقَّأَهَا، وَلَمْ يَعْتَبِرْ عَلَيْهِ رَبَّهُ؛ وَفِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ عَاتَبَ رَبَّهُ فِي النَّبِيِّ ﷺ إِذْ رَفَعَهُ فَوْقَهُ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ بِذَلِكَ، وَلَمْ يَعْتَبِرْهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ. قَالَ: لِأَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ قَامَ تِلْكَ الْمَقَامَاتِ الْعَظِيمَةَ الَّتِي أَوْجَبَتْ لَهُ هَذَا الدَّلَالَ؛ فَإِنَّهُ قَامَ فَرَعُونَ أَكْبَرَ أَعْدَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَصَدَّى لَهُ وَلِقَوْمِهِ، وَعَالَجَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمَعَالَجَةِ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَ اللَّهِ أَشَدَّ الْجِهَادِ، وَكَانَ شَدِيدَ الْغَضَبِ لِرَبِّهِ فَاحْتَمَلَ لَهُ مَا لَمْ يَحْتَمِلْهُ لغيره. وَذُو النُّونِ لَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْمَقَامِ سَجَنَهُ فِي بَطْنِ الْحَوْتِ مِنْ غَضَبِهِ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا.

(١) وَفِي لَفْظٍ: فَتَشَاوَرُوا. وَمَعْنَى تَشَاوَرُوا النَّاسُ أَي: تَشَاوَرُوا وَنَهَضُوا مِنْ أَمَاكِنِهِمْ، طَلَبًا لِلْفِتْنَةِ.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَتْ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ (١) حَتَّى

(١) يخفضهم: يسكنهم. قال الحافظ: زاد بن جريج في روايته في قصة الإفك هنا قال: قال ابن عباس: فقال بعضهم لبعض: موعدكم الحرة، أي خارج المدينة لتقاتلوا هناك.

وقولها: فلم يزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخفضهم حتى سكتوا، وفي رواية بن حاطب: فلم يزل يومئذ بيده إلى الناس ما هنا حتى هدأ الصوت، وفي رواية فليح: فنزل فخفضهم حتى سكتوا. قال الحافظ: ويحمل على أنه سكتهم وهو على المنبر، ثم نزل إليهم أيضًا ليكمل تسكيتهم، ووقع في رواية عطاء الخرساني عن الزهري: فحجز بينهم. الفتح: (٤٧٥ / ٨).

وتأمل حكمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تسكينهم أولاً ثم في طريقتة في إذهاب ما قد يعلق بنفوسهم من ضغينة بسبب ذلك الموقف، فقد روى الواقدي في المغازي (٤٣٥ / ٢) قائلاً: ومكث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أياماً، أي بعد تلك الحادثة – ثم أخذ بيد سعد بن معاذ في نفر فخرج يقود به حتى دخل به على سعد بن عباد، ومن معه فتحدثا عنده ساعة وقرب سعد بن عباد طعاماً، فأصاب منه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسعد بن معاذ ومن معه. ثم خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمكث أياماً، ثم أخذ بيد سعد بن عباد، ونفر معه فانطلق به حتى دخل منزل سعد بن معاذ، فتحدثا ساعة وقرب سعد بن معاذ طعاماً، فأصاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسعد بن عباد ومن معهم. ثم خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وإنما فعل ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن يذهب ما كان في أنفسهم من ذلك القول الذي تقاولوا.

سَكْتُوا وَسَكَتَ.

قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ، لَا يِرْقَائِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ!
قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، لَا يِرْقَائِي
دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لِأَظُنُّ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقُ (١) كَبِدِي!
فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانَ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَيَّ امْرَأَةً مِنْ
الْأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي (٢)، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَيَّ
ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْنَا، فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ (٣). قَالَتْ: وَلَمْ

(١) فالق: فاعل، من فلق الشيء، إذا شقه. ومنه قول رب العزة: ﴿فَالِقُ
الْأَصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

(٢) وساعدتها على البكاء وأسعدتها بهاء عيونها امرأة من أولي الوفاء والمواساة
والكرم والإيثار ومعالي الشيم؛ الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رجالاً ونساءً.

(٣) في رواية هشام بن عروة بلفظ: فأصبح أبوأي عندي، فلم يزالا، حتى
دخل علي رسول الله ﷺ وقد صلى العصر، وقد اكتنفتني أبوأي عن
يميني وعن شمالي، وفي رواية بن حاطب: وقد جاء رسول الله ﷺ،
حتى جلس علي سرير وجاهي. وفي حديث أم رومان: أن عائشة في تلك
الحالة كانت بها الحمى النافض، وأن النبي ﷺ لما دخل فوجدها كذلك
قال: «ما شأن هذه؟» قالت: أخذتها الحمى بنافض. قال: «فلعلّه في
حديث مُحَدَّثٌ» قالت: نعم: فقعدت عائشة. فتح الباري: (٨ / ٤٧٥).

حديث الإفك: عبراتٌ وعبرٌ

يَجْلِسُ عِنْدِي مُنْذُ قَيْلٍ مَا قَيْلٍ قَبْلَهَا. وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ^(١). قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَّغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا^(٢)، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيَبْرُتُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلَمَّمْتِ بِذَنْبٍ^(٣)، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَقَالَتهُ، قَلَصَ^(٤) دَمْعِي، حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً^(٥)، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَحِبَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا

(١) وذكر أن المدة كانت سبعة وثلاثين يومًا بإلغاء الكسر في هذه الرواية، وعند بن حزم أن المدة كانت خمسين يومًا أو أزيد، ويجمع بأنها المدة التي كانت بين قدومهم المدينة ونزول القرآن في قصة الإفك، وأما التقييد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبيها حين بلغها الخبر، ذكره الحافظ.

(٢) كذا وكذا: كناية عما رميت به من الإفك، وهذا من الكناية البليغة.

(٣) قولها: أَلَمَّمْتِ بِشَيْءٍ، وفي رواية: بِذَنْبٍ: هو من الإلمام، وهو النزول النادر غير المتكرر.

(٤) قَلَصَ الدَّمْعَ: انقطع جريانه وارتفع وانقبض. وقال القرطبي: يعني أن الحزن والوجدة قد انتهت نهايتهما، وبلغت غايتها، ومهما انتهى الأمر إلى ذلك قَلَصَ الدَّمْعَ لِفِرطِ حَرَارَةِ المَصِيبَةِ. عمدة القاري (٢٠ / ٣١٣).

(٥) وقلوص دمعها من العتب.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

قَالَ. فَقَالَ أَبِي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَا قَالَ. قَالَتْ أُمِّي: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١). فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثُ السَّنِّ، لَا أَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ كَثِيرًا: إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ، حَتَّى اسْتَقَرَّرَ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ (٢). فَلَيْنَ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، لَا تُصَدِّقُونِي (٣).

(١) قولها: قال: والله ما أدري ما أقول: أي أن الأمر الذي سألتها رسول الله ﷺ لا يقف منه على أمر زائد على ما عند رسول الله ﷺ قبل نزول الوحي من حسن الظن.

قال النووي: قولها لأبويها: أجيبا عني. فيه تفويض الكلام إلى الكبار، لأنهم أعرَف بمقاصده، واللائق بالمواطن منه، وأبواها يعرفان حالها. شرح مسلم: (١١٢ / ١٧).

(٢) قالت هذا وإن لم يكن على حقيقته على سبيل المقابلة، لما وقع من المبالغة في التنقيب عن ذلك، وهي كانت لما تحققت من براءة نفسها، ومنزلتها، تعتقد أنه كان ينبغي لكل من سمع عنها ذلك أن يقطع بكذبه، لكن العذر لهم عن ذلك، أنهم أرادوا إقامة الحجة على من تكلم في ذلك، ولا يكفي فيها مجرد نفي ما قالوا والسكوت عليه، بل تعين التنقيب عليه لقطع شبههم، أو مرادها بمن صدق به من أصحاب الإفك، لكن ضمت إليه من لم يكذبهم تغليبًا. الفتح: (٤٧٦ / ٨)

(٣) أي لا تقطعون بصدقي.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

وَلَيْنَ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيءَةٌ لَتُصَدِّقَنِي (١). فَوَاللَّهِ لَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ (٢)، وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ

(١) ويذكرنا هذا بقول كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يدي رسول الله ﷺ حين قفل من تبوك وسأله عن تخلفه فقال: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيْتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني؛ ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه؛ إني لأرجو فيه عقبي الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. قال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق» متفق عليه، وفيه تعلق الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالله، وشديد مراقبتهم له.

(٢) قولها: إلا أبا يوسف: أي إلا مثل يعقوب عليه الصلاة والسلام، وهو الصبر، وكأنها من شدة حزنها لم تتذكر اسم يعقوب، وإنما قالت أبا يوسف لأنه لما جاء إخوة يوسف أباهم يعقوب ومعهم قميص يوسف بدم كذب قال يعقوب: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وفي رواية أبي أويس: نسيت اسم =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللَّهَ مُبْرِّئِي بِرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحِيًّا يُتَلَّى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللَّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبْرِئُنِي اللَّهُ بِهَا. فَوَاللَّهِ مَا رَأَمَ (١) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَجْلِسَهُ، وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أَنْزَلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ الْبُرْحَاءِ (٢)،

= يعقوب، لما بي من البكاء واحتراق الجوف.

تحولت: حولت وجهي عنهم وأدرته للجدار.

(١) ما رام: أي ما برح من مكانه، يقال: رام يريم: إذا برح وزال، وقلما يستعمل إلا في النفي. والمراد: أي ما فارق مجلسه.

(٢) البرحاء: الشدة، وهي هنا بسبب ثقل الوحي، فقد كان إذا ورد عليه الوحي، يجد له مشقة، ويغشاه الكرب لثقل ما يُلقى عليه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا سَأَلْنَاكَ قَوْلًا نَفِيًّا﴾ ولذلك كان يعتريه مثل حال المحموم، كما روي أنه كان يأخذه عند الوحي الرُّحْضَاءُ، أي البهر والعرق من الشدة، وأكثر ما يسمّى به عَرَقُ الْحُمَّى، ولذلك كان جبينه يتفصّد عرقًا كما يُفصد. وإنما كان ذلك ليلو صبره، ويحسن تأديبه، فيرتاض لاحتمال ما كلفه من أعباء النبوة.

وقد ذكر البخاري في حديث يعلى بن أمية «فأدخل رأسه، فإذا رسول الله محمّر الوجه، وهو يغطُّ، ثم سرّي عنه» ومنه في حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كَرَبٌ لَذَلِكَ، =

حديث الإفك: عَبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ الْعَرَقِ مِثْلَ الْجَمَانِ^(١)، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ.

قَالَتْ: فَسُرِّي^(٢) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ

= وتربّد وجهه. وفي حديث الإفك هنا وصف آخر لذلك.

وقال الخطابي: البرحاء: شدة الكرب، مأخوذ من قولك: برحت بالرجل، إذا بلغت به غاية الأذى والمشقة. ويقال: لقيت منه البرح.

قال الحافظ في سياق حديث الإفك: وفي رواية ابن إسحاق: فسجّي بثوب، ووضعت تحت رأسه وسادة من آدم. وزاد بن جريج في روايته: قال أبو بكر: فجعلت أنظر إلى رسول الله ﷺ أخشى أن ينزل من السماء ما لا مردّ له، وأنظر إلى وجه عائشة فإذا هو منبّق فيطمعني ذلك فيها. وفي رواية بن إسحاق: فأما أنا فوالله ما فرغت، قد عرفت أني بريئة، وأن الله غير ظالمي، وأما أبواي فما سُري عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً من أن يأتي من الله تحقيق ما يقول الناس. الفتح: (٤٧٧ / ٨).

(١) الجمّان: جمع جمّانة: وهي اللؤلؤة، وهي الدرّ، وقيل: هي خرزة تعمل من الفضة مثل الدرّة. وقد شبّهت قطرات عرقه ﷺ بحبّات اللؤلؤ في الصفاء والحسن. قال الجواليقي: وقد جعل لبيد الدرّة جمّانة فقال: كجمّانة البحري سلّ نظامها. عمدة القاري (٣١٤ / ٢٠).

(٢) سري عنه: أي كشف وأزِيل عنه.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَمَا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأكَ»^(١) قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قَوْمِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ^(٢)، فَإِنِّي لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ

(١) وفي رواية ابن حاطب: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما زال يضحك، حتى إني لأنظر إلى نواجذه سرورًا، ثم مسح وجهه. قال ابن دحية: ونزل عذرها بعد سبع وثلاثين ليلة.

(٢) أي قالت لها أمها: قومي فاحمديه، وقبلي رأسه، واشكركه لنعمة الله تعالى التي بشرّك. فقالت ما قالت. قال ابن الجوزي: فعلت ذلك دلالة كما يدل الحبيب على الحبيب. وقال النووي: قالت ذلك إدلالًا عليهم، وعتابًا، لكونهم شكّوا في حالها مع علمهم بحسن طرائقها، وجميل أحوالها، وتنزهها عن هذا الباطل الذي افتراه الظلمة، ولا حجة لهم ولا شبهة فيه. قالت: وإنما أحمد ربي سبحانه وتعالى، الذي أنزل براءتي، وأنعم علي بما لم أكن أتوقّعه. النووي على مسلم (١١٣ / ١٧).

وقال ابن القيم في الزاد عند ذكر الحكم الربانية الجليلة من تلك الحادثة وقول الصديقة ما قالت: علم معرفتها، وقوة إيمانها، وتوليبتها النعمة لربّها، وإفراذه بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وقوة جأشها، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يُوجب قيامها في مقام الراغب في الصُّلح، الطالب له، وثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالًا للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسن مقامات الإدلال، فوضعتُه موضِعَه، والله ما كان أحبّها إليه حين قالت: =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

عَزَّ وَجَلَّ . قَالَتْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾
[النور: ١١-٢٠] العَشْرَ الْآيَاتِ (١) ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُنْثَاءَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ
وَفَقْرِهِ -: وَاللَّهِ لَا أَنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا ، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ (٢) مَا

= «لَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ ، فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي» وَلِلَّهِ ذَلِكَ الثَّبَاتُ وَالرِّزَانَةُ
مِنْهَا ، وَهُوَ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَيْهَا ، وَلَا صَبَرَ لَهَا عَنْهُ ، وَقَدْ تَنَكَّرَ قَلْبُ حَبِيبِهَا لَهَا
شَهْرًا ، ثُمَّ صَادَفَتِ الرَّضَى مِنْهُ وَالْإِقْبَالَ ، فَلَمْ تُبَادِرْ إِلَى الْقِيَامِ إِلَيْهِ ،
وَالسَّرُورِ بِرِضَاهِ وَقُرْبِهِ مَعَ شِدَّةِ مَحَبَّتِهَا لَهُ .

(١) عَلَى طَرِيقِ إِلْغَاءِ الْكَسْرِ ، لِأَنَّهَا ثَلَاثُ عَشْرَةَ آيَةً .

قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ فِي شَأْنِ آيَاتِ قِصَّةِ الْإِفْكِ : لَمْ يَقَعْ فِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّغْلِيظِ
فِي مَعْصِيَةِ مَا وَقَعَ فِي قِصَّةِ الْإِفْكِ ، بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ وَأَشْبَعِهَا ، لِاسْتِمَالِهِ عَلَى
الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ ، وَالْعِتَابِ الْبَلِيغِ ، وَالزَّجْرِ الْعَنِيفِ ، وَاسْتِعْظَامِ الْقَوْلِ فِي
ذَلِكَ ، وَاسْتِشْنَاعِهِ بِطَرَقٍ مُخْتَلِفَةٍ ، وَأَسَالِيْبٍ مُتَقَنَةٍ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا كَافٍ فِي
بَابِهِ . بَلْ مَا وَقَعَ مِنْهَا مِنْ وَعِيدِ عِبْدَةِ الْأَوْثَانِ ، إِلَّا بِمَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ ، وَمَا
ذَلِكَ إِلَّا لِإِظْهَارِ عُلُوِّ مَنْزِلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَتَطْهِيرِ مَنْ هُوَ مِنْهُ بِسَبِيلِ .
نَقَلَهُ عَنْهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ : (٨ / ٤٧٨) قُلْتُ : وَفِي قَوْلِهِ بِأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ لِأَهْلِ
الْوَعِيدِ مِثْلُهُ فِيهِ نَظَرٌ ، بَلْ قَدْ جَاءَ أَشَدَّ مِنْهُ وَأَعْظَمَ وَعَيْدًا لِأَهْلِ الشَّرْكِ
وَلِأَهْلِ النِّفَاقِ .

(٢) أَيِ عَنْهَا .

حديث الإفك: عبرات وعبر

قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] (١) قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى، وَاللَّهِ إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي. فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحِ النَّفْقَةِ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهَا، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا (٢). قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ (٣) بِنْتَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ لَزَيْنَبَ:

(١) ولا يأتل: يأتل: يفتعل، من الألية، وهي القسم، يقال: آلى وئاتلى وتآلى. جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين ابن الجزري. (٢/٢٧٢).

(٢) ووقع عند الطبراني أنه صار يعطيه ضعف ما كان يعطيه قبل ذلك. وقد أخرج الحاكم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ يِعَاتِبُ مِسْطَحًا فِي قِصَّةِ عَائِشَةَ: يَا عَوْفُ، وَيْحَكَ، هَلْ لَاقَلْتَ عَارِفَةَ مِنَ الْكَلَامِ، وَلَمْ تَبْتِغْ بِهِ طَعْمًا؟! وَكَانَ هُوَ وَأُمُّهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأُولَى، وَكَانَ أَبُوهُ مَاتَ وَهُوَ صَغِيرًا، فَكَفَلَهُ أَبُو بَكْرٍ، لِقَرَابَةِ أُمِّ مِسْطَحٍ مِنْهُ. شَرَحَ الْبُخَارِيُّ لِابْنِ بَطَالٍ: (٤٢ / ٨).

(٣) زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشِ الْأَسَدِيَّةِ، أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَتْ قَبْلَهُ عِنْدَ مَوْلَاهُ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَبَسَبَهَا نَزَلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ.

وَفِي الصَّحِيحِينَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ النَّبِيُّ ﷺ: «أَسْرَعُنْ لِحَاقًا بِأَطْوَلِكُمْ يَدًا»، فَكَانَتْ أُولَى نِسَائِهِ لِحَوْقًا بِهِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَتَصَدَّقُ. قَالَ =

«مَاذَا عَلِمْتِ، أَوْ رَأَيْتِ؟» فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصْرِي^(١)، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا. قَالَتْ عَائِشَةُ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي^(٢) مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ^(٣). قَالَتْ: وَطَفِقتُ أُخْتَهَا حَمْنَةَ مُحَارِبُ لَهَا^(٤)، فَهَلَكْتُ فِيمَنْ هَلَكَ^(٥).

قَالَ ابْنُ شَهَابٍ: فَهَذَا الَّذِي بَلَغَنِي مِنْ حَدِيثِ هُوَ لَاءِ الرَّهْطِ، ثُمَّ قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: وَاللَّهِ إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي قِيلَ لَهُ مَا قِيلَ، لَيَقُولُ:

= ابن عبد البر: كان اسمها برة، فلما دخلت على رسول الله سهاها زينب. وانظر ترجمتها في: الاستيعاب ص: ١٨٤٩، والإصابة (٦٦٧/٧ - ٦٧٠).

(١) أحمي سمعي وبصري: أي أصونهما وأمنعهما من أن أنسب إليهما ما لم يدركاه، فلا أقول سمعت ولم أسمع، وأبصرت ولم أبصر.

(٢) تساميني: من المساماة، من السمو والعلو، أي أنها تطلب من السمو والعلو والحظوة مثل الذي أطلب. والمراد أي تفاخري وتضاهيني بجماها ومكانها عند النبي ﷺ، وتعتقد أن الذي لها عنده مثل الذي لي عنده.

(٣) فعصمها الله بالورع: أي منعها به عما لا يحل.

(٤) أي تجادل لها، وتتعصب، وتحكي ما قال أهل الإفك، لتنخفض منزلة عائشة وتعلو مرتبة أختها زينب.

(٥) قلت: وقد طهرها الله بالحدِّ، والتوبة تجب ما قبلها، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

سُبْحَانَ اللَّهِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا كَشَفْتُ مِنْ كَنْفِ (١) أَنْثَى قَطُّ!
قَالَتْ: ثُمَّ قُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

(١) قوله: ما كشفت من كنف أنثى: الكنف: هو الستر ويراد به كذلك الجانب، والمراد: ما كشفت على امرأة ما سترته من نفسها، إشارة إلى التعفّف. ومنه ما جاء في حديث النجوى عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعاً: «يدني الله عز وجلّ عبده يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه» أي ستره. فالكنف عند الإطلاق هو الستر. قال ثابت: الكنف هاهنا هو الثوب الذي يكنفها، أي: يسترها، ومنه قولهم: هو في حفظ الله وكنفه. قال أبو حاتم: وبعض العرب يقول: أنت في كنفِي. وكنفا الطائر: جناحه. ذكره الخطابي.

وقيل: إنه كناية عن عدم جماع النساء جميعهن ومخالطتهن. قال الحافظ — وهو ابن حجر عند الإطلاق —: في رواية سعيد بن أبي هلال عن هشام بن عروة في قصة الإفك أن الرجل الذي قيل فيه ما قيل لما بلغه الحديث قال: والله ما أصبت امرأة قطّ حلالاً ولا حراماً. وفي حديث ابن عباس عند الطبراني: وكان لا يقرب النساء. فالذي يظهر أن مراده بالنفي المذكور ما قبل هذه القصة، ولا مانع من أن يتزوج بعد ذلك، فهذا الجمع لا اعتراض عليه إلا بما جاء عن ابن إسحاق أنه كان حصوراً — أي لا يأتي النساء لنقص آلته — لكنه لم يثبت، فلا يعارض الحديث الصحيح.

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مَسْرُوقُ بْنُ الْأَجْدَعِ (١) قَالَ: حَدَّثَنِي أُمُّ رُومَانَ (٢) — وَهِيَ أُمُّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا — قَالَتْ: بَيْنَا أَنَا قَاعِدَةٌ أَنَا وَعَائِشَةُ، إِذْ وَجَّتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَتْ: فَعَلَ اللَّهُ بِفُلَانٍ وَفَعَلَ (٣)، فَقَالَتْ أُمُّ رُومَانَ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَتْ: ابْنِي فِيمَنْ حَدَّثَ

(١) مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الهمداني الكوفي. تابعي فقيه ثبت، روى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاذ وعائشة وأمها أم رومان. وعنه الشعبي والنخعي ومكحول الشامي وأبو إسحاق السبيعي. توفي عام (٦٣) هـ. وانظر ترجمته في: تهذيب التهذيب: (١٠/١٠٩-١١١) والتقريب: (٦٦٠١).

(٢) وقد تكلم الخطيب في سماع مسروق من أم رومان واستبعده؛ لاعتماد الخطيب على رواية ضعيفة تفيد بوفاتها سنة تسع، وقد ردّ الحافظ ابن حجر ذلك، وأثبت أنها عمّرت، ورجح أن مسروقاً سمع منها في خلافة عمر.

وانظر: فتح الباري (٧/٥٥٦-٥٥٧). زاد المعاد (٣/٢٦٦-٢٦٧)، الفجر الساطع على الصحيح الجامع (٣/١٠١).

(٣) فعل الله بفلان: أي ولدها، ولم يُسمَّ من الأنصار غير حسان وابن أبي، ولم تكن أميها على قيد الحياة حينها، إلا إن قصدت الرضاع ونحوه، ذكره القسطلاني. وقال ابن حجر: ولم أقف على اسمه ولا على اسم أمه، =

حديث الإفك: عبرات وعبر

الحديث، قالت: وما ذاك؟ قالت: كذا وكذا! قالت عائشة: سمع رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم. قالت: وأبو بكر؟ قالت: نعم. فخرت مغشياً عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض، فطرحت عليها ثيابها فغطيتها^(١). فجاء النبي ﷺ فقال: «ما شأن هذه؟» قلت: يا رسول الله، أخذتها الحمى بنافض. قال: «فلعل في حديثي محدث به؟» قالت: نعم. فقعدت عائشة فقالت: والله لئن حلفت، لا تصدقوني، ولئن

= وهي غير المرأة التي دخلت على عائشة وبكت معها، وطريق الجمع بين هذه الرواية وبين غيرها: أنها سمعت الخبر أولاً من أم مسطح، فسمعتة منها أولاً مجملاً، ثم سمعتة من أمها كذلك، ثم أخبرتها الأنصارية بحضرة أمها، فحصل القطع بوقوع ذلك الحديث.

(١) وفي رواية الأسود عن عائشة: فألقت على أمي كل ثوب في البيت.

قال البقاعي في نظم الدرر (٥ / ٢٤٢): واستمر أهل الإفك في هذا أكثر من شهر، والله تعالى عالم بما يقولون، وبأن قولهم يكاد يقطع أكباد أحب خلقه إليه، وهو قادر على تكذيبهم عند أول ما خاضوا فيه، ولكنه سبحانه أراد لناس رفعة الدرجات، ولآخرين الهلاك، فيا لله ما لقي النبي ﷺ والصديق وآله رضوان الله عنهم وكل من أحبهم، وهم خير الناس، والله سبحانه وتعالى يُملي للأفكين ويمهلهم، وكان الحال كما قال أبو تمام الطائي:

كذا فليجل الخطبُ وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يفيض ماؤها عذراً

قُلْتُ، لَا تَعْدِرُونِي، مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَيْعُقُوبَ وَبَنِيهِ: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] قَالَتْ: وَأَنْصَرَفَ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَذْرَهَا. قَالَتْ: بِحَمْدِ اللَّهِ، لَا بِحَمْدِ أَحَدٍ، وَلَا بِحَمْدِكَ.

وقال ﷺ: بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿وَذَكَرَ حَدِيثَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا﴾ (١).

(١) قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالسِّنْتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿[النور: ١٢ -

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= قال البقاعي رحمه الله في نظم الدرر: ولما أخبر سبحانه وتعالى بعقابهم، وكان من المؤمنين من سمعه فسكت، وفيهم من سمعه فتحدث به متعجباً من قائله، أو مستثباً في أمره، ومنهم من كذبه، أتبعه سبحانه بعتابهم، في أسلوب خطابهم، مثنياً على من كذبه فقال مستأنفاً محرصاً: ﴿تَوَلَّأْ﴾ أي: هلاً ولم لا، إذ سمعتموه، ولما كان هذا الإفك قد تملاً عليه رجال ونساء قال: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي منكم، والمؤمنات، وكان الأصل ظننتم، ولكنه التفت إلى الغيبة تنبيهاً على التوبيخ، وصرح بالنساء، ونبه على الوصف المقتضي لحسن الظن تخويفاً للذي ظن السوء من سوء الخاتمة: ﴿بِأَنْفُسِهِمْ﴾ حقيقة خيراً، وهم دون من كذب عليها، فقطعوا ببراءتها لأن الإنسان لا يظن بالناس إلا ما هو متصف به أو بإخوانهم، لأن المؤمنين كالجسد الواحد، أو ظنوا ما يظن بالرجل لو خلا بأمه، وبالمراة إذا خلت بابنها، فإن نساء النبي صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين — قلت: ولعل المراد وصف المؤمنين بالنفس الواحدة، ولها شواهد قرآنية كقوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ فساها ذاتاً بالافراد، مع أنهم لا يُحصون كثرة - .

﴿وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ﴾ أي كذب عظيم ﴿مُبِينٌ﴾ أي واضح في نفسه، موضح لغيره، وبيانه وظهوره أن المرتاب يكاد يقول: خذوني، فهو يسعى في التستر جهده، فإتيان صفوان بعائشة رضي الله عنها راكبة على جملة داخلاً به الجيش في نحر الظهيرة، والناس كلهم يشاهدون ورسول الله صلى الله عليه وسلم =

= بين أظهرهم، ينزل عليه الوحي، إدلالاً بحسن عمله، غافلاً عما يظن به أهل الريب، أدلّ دليل على البراءة وكذب القاذفين، ولقد عمل أبو أيوب الأنصاري وصاحبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بما أشارت إليه هذه الآية. ثم علّل سبحانه بيان كذب الآفكين بأن قال موبخاً لمن اختلقه وأذاعه، ملقناً لمن ندبه على ظنّ الخير: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هلا، ولم لا، ﴿جَاءُوا﴾ أي: المفترون له أولاً ﴿عَلَيْهِ﴾ إن كانوا صادقين ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ﴾ فالقذف لا يباح إلا بها. ولما لم يأتوا بالشهداء كذبهم فقال: ﴿فَإِذْ﴾ أي: فحين ﴿لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ﴾ أي الموصوفين ﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي: البعداء من الصواب ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الملك الأعلى، بل وفي هذه الواقعة بخصوصها في علمه ﴿هُمُ الْكٰذِبُونَ﴾ أي الكذب العظيم ظاهراً وباطناً. ولما بين لهم بإقامة الدليل على كذب الخائضين في هذا الكلام أنهم استحقوا الملام، وكان ذلك مرغباً لأهل التقوى، بين أنهم استحقوا بالتقصير في الإنكار عموم الانتقام في سياق مبشر بالعفو فقال عاطفاً على ﴿وَلَوْلَا﴾ الماضية ﴿وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: معاملته لكم بمزيد الإنعام اللازم للرحمة ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بقبول التوبة، والمعاملة بالحلم ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بالعفو عمن يريد أن يعفو عنه منكم ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أي عاجلاً ﴿فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ أي اندفعتم على أي وجه كان ﴿فِيهِ﴾ بعضكم بالقول، وبعضكم بعدم الإنكار ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي يحترق معه اللوم والجلد، بأن =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= يهلك فيتصل به عذاب الآخرة؛ ثم بين وقت حلوله وزمان تعجيله بقوله: ﴿إِذْ﴾ أي مسكم حين ﴿تَلَقَّوْنَهُ﴾ أي تجتهدون في تلقي قبول هذا الكلام الفاحش وإلقائه ﴿بِالْسِنَتِكُمْ﴾ بإشاعة البعض، وسؤال آخرين، وسكوت آخرين ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ تصوير لمزيد قبحه، وإشارة إلى أنه قولٌ لا حقيقة له، فلا يمكن ارتسامه في القلب بنوع دليل؛ وأكد هذا المعنى بقوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي بوجه من الوجوه، وتنكيره للتحقير ﴿وَتَحْسَبُونَهُ﴾ بدليل سكوتكم عن إنكاره ﴿هَيِّنًا وَهُوَ﴾ أي والحال أنه ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: الذي لا يبلغ أحد مقدار عظمته ﴿عَظِيمٌ﴾ أي في حد ذاته، ولو كان في غير أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكيف وهو في جنابها المصون، وهي زوجة خاتم الأنبياء وإمام المرسلين عليه أفضل الصلاة وأفضل التسليم؟! ولما بين فحشه وشناعته، وقبحه وفضاعته، عطف على التأديب الأول في قوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تأديباً فقال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ﴾ أي حين سماعه من غير توقف ولا تلعثم، وفصل بين آلة التحضيض والقول المحضض عليه بالظرف؛ لأن الظروف تنزل من الشيء منزلة نفسه لوقوعه فيها، وأنها لا انفكاك لها عنه، ولأن ذكره منبه على الاهتمام به، لوجوب المبادرة على المحضض عليه: ﴿مَا يَكُونُ﴾ أي ما ينبغي وما يصح ﴿لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي بمثله في حق أدنى الناس، فكيف بمن اختارها العليم الحكيم لصحبة أكمل الخلق، تعجباً من أن يخطر بالبال، في حال من الأحوال.

= ولما كان تنزيه الله تعالى في مثل ذلك وإن كان للتعجب، إشارة إلى تنزيه المقام الذي وقع فيه التعجب تنزيهاً عظيماً؛ حسن أن يوصل بذلك قوله تعليلاً للتعجب والنفي: ﴿هَذَا بُهْتَنٌ﴾ أي كذب يبهت من يواجه به، ويجيره لشدة ما يفعل في القوى الباطنة، لأنه في غاية الغفلة عنه، لكونه أبعد الناس منه؛ ثم هوّله بقوله: ﴿عَظِيمٌ﴾ والمراد: أن الذي ينبغي للإنسان أولاً أن لا يظن بإخوانه المؤمنين ولا يسمع فيهم إلا خيراً، فإن غلبه الشيطان وارتسم شيء من ذلك في ذهنه فلا يتكلم به، بل يبادر إلى تكذيبه.

ولما كان هذا كله وعظماً لهم واستصلاحاً، أردفه بقوله: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ما دمتم أهلاً لسماع هذا القول، فقد عظم هذا الوعد، وألهب سامعه بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي متصفين بالإيمان، راسخين فيه، فإنكم لا تعودون، فإن عدتم فأنتم غير صادقين في دعواكم الاتصاف به ﴿وَبَيْنَ اللَّهِ﴾ أي بما له من الاتصاف بصفات الجلال والإكرام ﴿لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي العلامات الموضحة للحق والباطل من كل أمر ديني أو دنيوي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ فثقوا ببيانه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضع شيئاً إلا في أحكم مواضعه وإن دق عليكم فهم ذلك، فلا تتوقفوا في أمر من أوامره، واعلموا أنه لم يخترنبيه عليه الصلاة والسلام إلا الخُلص من عباده، على حسب منازلهم عنده، وقرهم من قلبه.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= ولما كان من أعظم الوعظ بيان ما يستحق على الذنب من العقاب ، أدهم تأديباً ثالثاً أشد من الأولين، فقال واعظاً ومقبّحاً لحال الخائضين في الإفك ومحذراً ومهدداً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾ عبّر بالحب إشارة إلى أنه لا يرتكب هذا مع شناعته إلا محب له، ولا يحبه إلا بعيد عن الاستقامة ﴿أَنْ تَشِيعَ﴾ أي تنتشر بالقول أو بالفعل ﴿الْفَحِشَةَ﴾ أي الفعلة الكبيرة القبح ﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ولو كانوا في أدنى درجات الإيمان، فكيف بمن تسنم ذروته، وتبواً غايته؟! ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ردعاً لهم عن إرادة إشاعة مثل ذلك، لما فيه من عظيم الأذى ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالحد وغيره مما ينتقم الله منهم به ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ فإن الله يعلم هل كفر الحد عنهم جميع مرتكبهم أم لا؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ أي له العلم التام، فهو يعلم مقادير الأشياء ما ظهر منها وما بطن، وما الحكمة في ستره أو إظهاره أو غير ذلك من جميع الأمور ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ليس لكم علم من أنفسكم، فاعلموا بما علمكم الله، ولا تتجاوزوه تضلوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ

= اللَّهُ وَلِيَعْفُوا وَيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ فإنه سبحانه لما ختم بالحكم عليهم بالجهل، وكان التقدير كما أرشد إليه ما يأتي من العطف على غير معطوف: فلولا فضل الله عليكم ورحمته بكم لعجل هلاك المحبين لشيوع ذلك بعذاب الدنيا، ليكون موصولاً بعذاب الآخرة؛ عطف عليه قوله مكرراً التذكير بالمنة بترك المعالجة حاذفاً الجواب، منبهاً بالتكرير والحذف إلى قوة المبالغة وشدة التهويل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ بكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ أي ولولا أن الله الذي له القدرة التامة، فسبقت رحمته غضبه ﴿رَءُوفٌ﴾ بكم في نصب ما يزيل جهلكم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ونصب الحدود الزاجرة عن الجهل، الحاملة على التقوى، التي هي ثمرة العلم، ﴿رَحِيمٌ﴾ بما يثبت لكم من الدرجات على ما منحكم به من ثمرات ذلك الحفظ من الأعمال المرضية، والجواب محذوف تقديره: لترككم في ظلمات الجهل تعمهون، فثارت بينكم الفتن حتى تفانيكم، ووصلتم إلى العذاب الدائم بعد الهم اللازم. ولما أخبرهم بأنه ما أنزل لهم هذا الشرع على لسان هذا الرسول الرؤوف الرحيم إلا رحمة لهم، بعد أن حذرهم موارد الجهل، نهاهم عن التماهي فيه، في سياق معلم أن الداعي إليه الشيطان العدو، فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي لا تقتدوا به، ولا تسلكوا مسالكه التي يحمل على سلوكها بتزيينها في شيء من الأشياء، وكأنه أشار بصيغة الافتعال إلى العفو عن الهفوات.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= ولما كان التقدير: فإنه من يتنكب عن طريقه يأت بالحسنى والمعروف، عطف عليه قوله: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ﴾ أي بعزم ثابت من غير أن يكون مخطئاً أو ناسياً؛ وأظهر ولم يضمم لزيادة التنفير فقال: ﴿خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي ويقته به يقع في مهاوي الجهل الناشئ عنها كل شر ﴿فَإِنَّهُ﴾ أي الشيطان ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهو ما لم يجوزه الشرع، فهو أولاً يقصد أعلى الضلال، فإن لم يصل تنزل إلى أدناه، وربما درج بغير ذلك، ومن المعلوم أن من أتبع من هذا سبيله عمل بعمله، فصار في غاية السفول، وهذا الإظهار أشد في التنفير من الإضمار بإعادة الضمير.

ولما كان التقدير: فلولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان مع أمره بالقبائح، عطف عليه قوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي بتطهير نفوسكم ورفعها من الدنيا إلى المعالي ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لكم بإكرامكم ورفعتمكم بشرع التوبة المكفرة لما جر إليه الجهل من ناقص الأقوال وسفاه الأفعال ﴿مَا زَكَّيْنَا مِنْكُمْ﴾ أي طهر ونما، وأكد الاستغراق بقوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ وعم الزمان بقوله: ﴿أَبَدًا﴾ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، من جميع أدناس نفسه وأمراض قلبه، وإن كان العباد وأخلاقهم في الانتشار والكثرة بحيث لا يحصيهم غيره، فلذلك زكى منكم من شاء فصانه عن هذا الإفك، وخذل من شاء.

= ثم ختم الآية بما لا تصح التزكية بدونه فقال: ﴿وَاللَّهُ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿سَمِيعٌ﴾ أي لجميع أقوالهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يخاطر في بالهم، وينشأ عن أحوالهم وأفعالهم، فهو خبير بمن هو أهل للتزكية ومن ليس بأهل لها، فاشكروا الله على تزكيتهم لكم من الخوض في مثل ما خاض فيه غيركم ممن خذله نوعاً من الخذلان، واصبروا على ذلك منهم، ولا تقطعوا إحسانكم عنهم، فإن ذلك يكون زيادة في زكاتكم، وسبباً لإقبال من علم فيه الخير منهم، فقبلت توبته، وغسلت حوبته، وهذا المراد من قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي يحلف مبالغاً في اليمين ﴿أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ الذين جعلتهم بما آتيتهم من العلم والأخلاق الصالحة أهلاً لبر غيرهم ﴿وَالسَّعَةِ﴾ أي بما أوسعت عليهم في دنياهم.

ولما كان السياق والسباق واللحاق موضحاً للمراد؛ لم يحتج إلى ذكره أداة النفي فقال: ﴿أَنْ يُؤْتُوا﴾ ثم ذكر الصفات المقتضية للإحسان فقال: ﴿أُولَى الْقُرْبَى﴾ وعددها بأداة العطف تكثيراً لها وتعظيماً لأمرها، وإشارة إلى أن صفة منها كافية في الإحسان، فكيف إذا اجتمعت؟! فقال سبحانه: ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ أي الذين لا يجدون ما يغنيهم وإن لم تكن لهم قرابة ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ لأهلهم وديارهم وأمواهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي الذي عم الخلائق بجوده لما له من الإحاطة بالجلال والإكرام، فهم وإن انتفى عنهم الوصفان الأولان فإن هذه الصفات مؤذنة بأنهم ممن زكى الله، =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وتعدادها بجعلها علة للعفو دليل على أن الزاكي من غير المعصومين قد يزل، فتدركه الزكاة بالتوبة فيرجع كما كان، وقد تكون الثلاثة لموصوف واحد، لأن سبب نزولها مسطح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالعطف إذن للتمكن في كل وصف منها.

ولما كان النهي عن ذلك غير صريح في العفو، وكان التقدير: فليؤتوهم، عطف عليه مصرحاً بالمقصود قوله: ﴿وَلْيَعْفُوا﴾ أي عن زللهم بأن يمحوه ويغطوه بما يسلبونه عليه من أستار الحلم حتى لا يبقى له أثر. ولما كان المحو لا ينفي التذكر قال: ﴿وَلْيَصْفَحُوا﴾ أي يعرضوا عنه أصلاً ورأساً، فلا يخطر لهم على بال ليثمر ذلك الإحسان، ومنه الصفوح، وهو الكريم.

ولما كانت لذة الخطاب تنسي كل عتاب، أقبل سبحانه بفضله ومنه وطوله على أولي الفضل، مرغباً في أن يفعلوا بغيرهم ما يحبون أن يفعل بهم، مرهباً من أن يشدد عليهم إن شددوا فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ أي يا أولي الفضل ﴿أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أي ما قصرتم في حقه. وناهيك بشهادة الله جل جلاله للصديق بأنه من أولي الفضل فيا له من شرف ما أجلاه، ومن سؤدد وفخار ما أعلاه، ولا سيماً وقد صدقه رضي الله عنه بالعفو عمن شنع على ثمرة فؤاده، ومهجة كبده، وهي أنه لا يقطع النفقة عنه أبداً، فيا لله من أخلاق ما أبهاها، وشمائل ما أطهرها وأزكاها، وأشرفها وأسناها. ولما كان الجواب قطعاً كما أجاب الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بلى والله إنا لنحب =

= أن يغفر الله لنا، وكان كأنه قيل: فاغفروا لمن أساء إليكم، فالله حكم عدل، يجازيهم على إساءتهم إليكم إن شاء، والله عليم شكور، يشكر لكم ما صنعتم إليهم، عطف عليه قوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ومن صفته ذلك، إن شاء يغفر لكم ذنوبكم بأن يمحوها فلا يدع لها أثراً، ويرحمكم بعد محوها بالفضل عليكم كما فعلتم معهم، فإن الجزاء من جنس العمل.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِئَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ [النور: ٢٣ - ٢٥] ولما كان الختم بهذين الوصفين بعد الأمر بالعفو ربما جرّاً على مثل هذه الإساءة، وصل به مرهّباً من الوقوع في مثل ذلك قوله معمماً للحكم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ أي بالفاحشة ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي اللاتي جعلن أنفسهن من العفة في مثل الحصن. ولما كان الهام بالسيئ والمقدم عليه عالماً بما يرمي به منه، جاعلاً له نصب عينيه، أكد معنى الإحصان بقوله: ﴿الْفَافِئَاتِ﴾ أي عن السوء حتى عن مجرد ذكره. ولما كان وصف الإيمان حاملاً على كل خير ومانعاً ن كل سوء، نبه على أن الحامل على الوصفين المتقدمين إنما هو التقوى، وصرف ما لهن من الفطنة إلى ما لله عليهن من الحقوق فقال: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾. ولما ثبت بهذه الأوصاف البعد عن السوء، ذكر جزاء القاذف كفاً وتحذيراً منه بصيغة المجهول، لأن المحذور اللعن لا كونه المعين، وتنبهها على وقوع =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= اللعن من كل من يأتي منه فقال: ﴿لُعِنُوا﴾ أي أبعادوا عن رحمة الله، وفعل معهم فعل المبعد من الحد وغيره ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ثم زاد في تعظيم القذف لمن هذه أوصافها فقال: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي في الآخرة ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وقيد بوصف الإيذان، لأن قذف الكافرة وإن كان محرماً ليس فيه هذا المجموع، وهذا الحكم وإن كان عاماً فهو لأجل الصديقة بالذات وبالقصد الأول، وفيما فيه من التشديد الذي قل أن يوجد مثله في القرآن، من الإعلام بعليّ قدرها، وجليّ أمرها، في عظيم فخرها، ما يجلب عن الوصف.

ثم أتبع ذلك ذكر اليوم الذي يكون فيه أثر ذلك على وجه زاد الأمر عظماً فقال: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ أي يوم القيامة في ذلك المجمع العظيم ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾ إن أنكرت ألسنتهم كذباً وفجوراً ظناً أن الكذب ينفعها ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من هذا القذف وغيره؛ ثم زاد في التهويل بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي إذ تشهد عليهم هذه الجوارح ﴿يُؤْفِكِهِمُ اللَّهُ﴾ أي المحيط بكل شيء علماً وقدرة، وله الكمال كله ﴿دِينَهُمْ﴾ أي جزاءهم ﴿الْحَقُّ﴾ أي الذي يظهر لكل أحد من أهل ذلك المجمع العظيم أنهم يستحقونه، فلا يقدر أحد على نوع طعن فيه ﴿وَيَعْلَمُونَ﴾ أي إذ ذاك، لانقطاع الأسباب، ورفع كل حجاب ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ﴾ أي وحده ﴿الْحَقُّ﴾ أي الثابت أمره فلا أمر لأحد سواه - الذي لا يستحق العبادة سواه - =

= ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ الذي لا أوضح من شأنه في ألوهيته وعلمه وقدرته وتفردته بجميع صفات الكمال، وتنزهه عن جميع سمات النقص، فيندمون على ما فعلوا في الدنيا مما يقدر في المراقبة وتجري عليه الغفلة. قال ابن كثير: وأمّهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، لا سيّما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقد أجمع العلماء قاطبة على أن من سبّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية؛ فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمّهات المؤمنين رضي الله عنهن قولان أصحهما أنهن كهي، والله أعلم. انتهى.

وقد علم من هذه الآيات وما سبقها من أول السورة وما لحقها إلى آخرها أن الله تعالى ما غلّظ في شيء من المعاصي ما غلّظ في قصة الإفك، ولا توعد في شيء ما توعد فيها، وأكد وبشّع، ووبّخ وقرّع، كل ذلك إظهاراً لشرف رسوله ﷺ، وغضباً له، وإعظماً لحرمة، وصوناً لحجابه.

ثم قال سبحانه: ﴿الْحَيْثُتُ لِلْحَيْثِينَ وَالْحَيْثُوتُ لِلْحَيْثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦] فلما تضمن ما ذكر من وصفه تعالى علمه بالخفيات، أتبعه ما هو كالعلة لآية ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ دليلاً شهودياً على براءة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فقال: ﴿الْحَيْثُتُ﴾ أي من النساء، وقدم هذا الوصف لأن كلامهم فيه، فإذا انتفى ثبت الطيب ﴿لِلْحَيْثِينَ﴾ أي من =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= الرجال. ولما كان ذلك لا يفهم أن الخبيث مقصور على الخبيثة قال:
﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ أي من الرجال أيضاً ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ أي من النساء. ولما
أنتج هذا براءتها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأنها قرينة أطيّب الخلق، أكده بقوله:
﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ بذلك قضى العليم الخبير أن كل
شكل ينضم إلى شكله، ويفعل أفعال مثله، وهو سبحانه قد اختار لهذا
النبي الكريم لكونه أشرف خلقه خلّص عباده من الأزواج والأولاد
والأصحاب ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] «خيركم
قرني» وكلما ازداد الإنسان منهم من قبله ﷺ قرباً ازداد طهارة، وكفى
بهذا البرهان دليلاً على براءة الصديقة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فكيف وقد أنزل الله
العظيم في براءتها صريح كلامه، وحاطه من أوله وآخره بهاتين الآيتين
المشيرتين إلى الدليل العادي، وقد خرّج مسلم في الأدب من صحيحه
وأبو داود في سننه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال:
«الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» وفي
رواية عنه رفعها: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في
الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف
منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف» ولفظ حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
«فإذا التقت تشامّ كما تشامّ الخيل، فما تعارف منها ائتلف..».

= وأنشدوا لأبي نُؤاس في المعنى:

وقال ﷺ تعالى: **بَاب قَوْلِهِ ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾** [النور: ١٤] وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «تَلَقَّوْنَهُ» يَرَوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، «تُفِيضُونَ» تَقُولُونَ (١).

= إن القلوب لأجناد مجندة لله في الأرض بالأهواء تعترف
فما تعارف منها فهو مؤتلف وما تناكر منها فهو مختلف
ولما ثبت هذا كانت نتيجته قطعاً: ﴿أُولَئِكَ﴾ أي العالو الأوصاف
بالطهارة والطيب ﴿مُبْرَأُونَ﴾ براءة الله، وبراءة كل من له تأمل في مثل
هذا الدليل ﴿وَمَا يَقُولُونَ﴾ أي القذفة الأخابث، لأنها لا تكون زوجة
أطيب الطيبين إلا وهي كذلك. ولما أثبت لهم البراءة، استأنف الإخبار
بجزائهم فقال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فالله عز وجل قد كسا عائشة
من الشرف ما كساها، وحلاها برونقه من مزايا الفضل ما حلاها،
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأرضاها. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن
عمر البقاعي، مختصراً (٢٣٥/٥ - ٢٤٨)

(١) قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن يتحدث به ويلقيه بين الناس حتى ينتشر. والثاني: أن يتلقاه
بالقبول إذا حدث به ولا ينكره. وحكى ابن أبي مليكة أنه سمع عائشة
تقرأ: إذ تلقونه، بكسر اللام مخففة، وفي تأويل هذه القراءة وجهان:
أحدهما: ترددونه، قاله اليزيدي. الثاني: تسرعون في الكذب وغيره.

حديث الإفك: عبرات وعبر

= قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ هذا بيان لسبب العذاب، وهو تلقي الباطل بالألسنة، والقول بالأفواه، وهما نوعان محرمان: القول بالباطل والقول بلا علم. ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ فالأول تحضيض على الظن الحسن، وهذا نهي لهم عن التكلم بالقذف، ففي الأول قوله: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث» وكذا قوله تعالى: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ دليل على حسن مثل هذا الظن الذي أمر الله به، وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: «ما أظن فلاناً وفلاناً يدريان من أمرنا هذا شيئاً» فهذا يقتضي جواز بعض الظن كما احتج البخاري بذلك؛ لكن مع العلم بما عليه المرء المسلم من الإيمان الوازع له عن فعل الفاحشة يجب أن يظن به الخير دون الشر. وفي الآية نهي عن تلقي مثل هذا باللسان، ونهي عن أن يقول الإنسان ما ليس له به علم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ والله تعالى جعل في فعل الفاحشة والقذف من العقوبة ما لم يجعله في شيء من المعاصي؛ لأنه جعل فيها الرجم، وقد رجم هو تعالى قوم لوط إذ كانوا هم أول من فعل فاحشة اللواط، وجعل العقوبة على القذف بها ثمانين جلدة، والرمي غيرها فيه =

= الاجتهاد، ويجوز عند بعض العلماء أن يبلغ الثمانين عند كثير منهم كما قال علي: لا أوتى بأحد يفصلني على أبي بكر وعمر إلا جلده حدّ المفترى. وكما قال عبد الرحمن بن عوف: إذا شرب هذّي، وإذا هذى افتري، وحدّ الشرب ثمانون، وحدّ المفترى ثمانون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ الآية، وهذا ذم لمن يحب ذلك، وذلك يكون بالقلب فقط، ويكون مع ذلك باللسان والجوارح، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة أو يخبر بها محبةً لوقوعها في المؤمنين: إما حسداً، أو بغضاً، وإما محبة للفاحشة وإرادة لها، وكلاهما محبة للفاحشة وبغضاً للذين آمنوا فكل من أحب فعلها ذكرها. وكره العلماء الغزل من الشعر الذي يُرغَّبُ فيها، وكذلك ذكرها غيبة محرمة، سواء كان بنظم أو نثر، وكذلك التشبه بمن يفعلها منهي عنه، مثل الأمر بها؛ فإن الفعل يطلب بالأمر تارة، وبالإخبار تارة، فهذان الأمران للفجرة الزناة اللوطية مثل ذكر قصص الأنبياء والصالحين للمؤمنين، أولئك يعتبرون من الغيرة بهم، وهؤلاء يعتبرون من الاغترار؛ فإن أهل الكفر والفسوق والعصيان يذكرون من قصص أشباههم ما يكون به لهم فيهم قدوة وأسوة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قيل: أراد الغناء، وقيل أراد قصص الملوك من الكفار من الفرس. وبالجملة كل ما رغب النفوس في طاعة الله ونهاها =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= عن معصيته من خبر أو أمر فهو من طاعته، وكل ما رغبها في معصيته ونهى عن طاعته فهو من معصيته، فأما ذكر الفاحشة وأهلها بما يجب أو يستحب في الشريعة، مثل النهي عنها وعنهم، والذم لها ولهم، وذكر ما يبغضها وينفر عنها، وذكر أهلها مطلقاً حيث يسوغ ذلك، وما يشرع لهم من الذم في وجوههم ومغيبهم؛ فهذا كله حسن، يجب تارة، ويستحب أخرى، وكذلك ما يدخل فيها من وصفها ووصف أهلها من العشق على الوجه المشروع الذي يوجب الانتهاء عما نهى الله عنه والبغض لما يبغضه. وهذا كما أن الله قص علينا في القرآن قصص الأنبياء والمؤمنين والمتقين وقصص الفجار والكفار لنعبر بالأميرين: فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم، ونبغض الآخرين وسبيلهم ونجتنب فعالهم. وقد ذكر الله عن أنبيائه وعباده الصالحين من ذكر الفاحشة وعلائقها على وجه الذم ما فيه عبرة قال تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر القصة في مواضع من كتابه. فهذا لوط خاطب أهل الفاحشة وهو رسول الله بتقريعهم بها بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ وهذا استفهام إنكار، ونهي إنكار، ذم ونهي، كالرجل يقول للرجل: أنفعل كذا وكذا؟ أما تتقي الله؟ ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ وهذا استفهام ثان فيه من الذم والتوبيخ ما فيه، وليس هذا من باب القذف واللمز. وكذلك قوله: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة، فقد =

حديث الإفك: عَبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ كَثِيرٍ، أَخْبَرَنَا سُليْمَانُ، عَنْ حُصَيْنٍ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ أُمِّ رُوْمَانَ أُمِّ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: لَمَّا رَمِيَتْ عَائِشَةُ؛ خَرَّتْ مَغْشِيًّا عَلَيْهَا.

وقال: بَابُ ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

= واجههم بدمهم وتوبيخهم على فعل الفاحشة، ثم إن أهل الفاحشة توعدهم وتهددوهم بإخراجهم من القرية، وهذا حال أهل الفجور إذا كان بينهم من ينهاتهم طلبوا نفيه وإخراجه، وقد عاقب الله أهل الفاحشة اللوطية بما أرادوا أن يقصدوا به أهل التقوى؛ حيث أمر بنفي الزاني ونفي المخنث، فمضت سنة رسول الله ﷺ بنفي هذا وهذا، وهو سبحانه أخرج المتقين من بينهم عند نزول العذاب. وكذلك ما ذكره تعالى في قصة يوسف ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وما ذكره بعد ذلك فمن كلام يوسف من قوله: ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وهذا من باب الاعتبار الذي يوجب انتهار النفوس عن معصية الله، والتمسك بالتقوى، وكذلك ما بينه في آخر السورة بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. مجموع الفتاوى (١٥ / ٣٣١ - ٣٣٧) باختصار.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ قَالَ: اسْتَأْذَنَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَبْلَ مَوْتِهَا عَلَى عَائِشَةَ وَهِيَ مَغْلُوبَةٌ قَالَتْ: أَخَشَى أَنْ يُثْنِيَ عَلَيَّ. فَقِيلَ: ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَمِنْ وُجُوهِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَتْ: ائْذَنُوا لَهُ. فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدِينَكَ؟ قَالَتْ: بِخَيْرٍ إِنْ اتَّقَيْتُ. قَالَ: فَأَنْتِ بِخَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ؛ زَوْجَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يَنْكَحْ بَكْرًا غَيْرَكَ، وَنَزَلَ عُذْرُكَ مِنَ السَّمَاءِ. وَدَخَلَ ابْنُ الزُّبَيْرِ خِلَافَهُ فَقَالَتْ: دَخَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَثْنَى عَلَيَّ، وَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا^(١).

(١) وفي روايات أخرى: فقال لها عبد الله: يا أمتاه، إن ابن عباس من صالح بيتك، يسلم عليك ويودعك، قالت: ائذن له إن شئت. فقال: كيف تجدينك؟ قالت بخير إن اتقيت الله، فلما جلس قال: أبشري يا أم المؤمنين، تقدمين على فرط صدق، وتقدمين على رسول الله ﷺ وعلى أبي بكر، وما بينك وبين أن تلقى محمداً والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، فأنت بخير إن شاء الله تعالى، زوجة رسول الله ﷺ، ولم ينكح بكرًا غيرك، كنت أحب نساء رسول الله ﷺ، ولم يكن يجب إلا طيبًا، ونزل عذرك من السماء. وأنزل الله براءتك من فوق سبع سماوات، جاء به الروح الأمين، فليس في الأرض مسجد إلا وهو يتلى فيه أثناء الليل وأطراف النهار، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فنزل التيمم، فوالله إنك مباركة، إنها سميت أم المؤمنين لتسعدني، وإنه لاسمك قبل أن تولدي. =

= عن الفتح باختصار الروايات وإدماجها. وفي هذه القصة دلالة على سعة علم ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعظيم منزلته بين الصحابة والتابعين، وتواضع عائشة وفضلها وتشديدها في أمر دينها، وأن الصحابة كانوا لا يدخلون على أمهات المؤمنين إلا بإذن، والتنبيه على رعاية جانب الأکابر من أهل العلم والدين، وأن لا يترك ما يستحقونه من ذلك لمعارض دون ذلك في المصلحة. فتح الباري: (٨ / ٤٨٥) ولتقف مع أمنا الطاهرة قليلاً: وهي عائشة بنت أبي بكر الصديق، أم المؤمنين، الصديقة المبرأة من كل عيب، حبيبة رسول الله ﷺ، الفقيهة الربانية، وكنيتها أم عبد الله، كانها النبي ﷺ بابن أختها عبد الله بن الزبير. حينما استأذنته في الكنية فقال: «اكتني بابنك عبد الله بن الزبير» يعني ابن أختها. روت عن النبي ﷺ فأكثر، روى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين، منهم مسروق والأسود وابن المسيب وعروة والقاسم وأبو سلمة وعمر، وولدت سنة أربع من النبوة، وتزوجها النبي ﷺ بعد موت خديجة بثلاث سنين وهي بنت سبع أو ست. وفي صحيح مسلم من حديثها: «تزوجها وهي بنت ست، وبنى بها وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثماني عشرة» وله أيضاً: «تزوجها وهي بنت سبع سنين» دخل بها في السنة الثانية من الهجرة في شوال، ومناقبها جمّة منها نزول القرآن ببراءتها.

وفي الصحيحين من حديث أنس وأبي موسى أن رسول الله ﷺ قال:
= «فضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وفي الصحيحين من حديثها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ هَذَا جَبْرِيلُ يُقْرَأُكَ السَّلَامَ» قَالَتْ: فَقُلْتُ: عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لَا أَرَى.

ولهما عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُرِيْتُكَ فِي الْمَنَامِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، جَاءَنِي بِكَ الْمَلِكُ فِي سَرَقَةٍ مِنْ حَرِيرٍ، فَيَقُولُ: هَذِهِ امْرَأَتُكَ، فَأَكْشَفَ عَن وَجْهِكَ فَإِذَا أَنْتَ هِيَ، فَأَقُولُ إِنَّ يَكُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُمَضِّهِ» وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ وَحَسَنُهُ بِسَنَدِهِ عَنْهَا: أَنَّ جَبْرِيلَ جَاءَ بِصُورَتِهَا فِي خِرْقَةٍ حَرِيرٍ خَضِرَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «هَذِهِ زَوْجَتُكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وأخرج البخاري من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله، لو نزلت وادياً فيه شجرة قد أُكِلَ منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: «في التي لم يرتع منها» تعني أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «قال لها إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبي» فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «أمّا إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا، ورب محمد، وإذا كنت غضبي، قلت: لا، ورب إبراهيم» قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك. وللترمذي وصححه من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: «عَائِشَةُ» قُلْتُ: مِنَ الرِّجَالِ؟ قَالَ: «أَبُوهَا» قُلْتُ: وَتَأْمَلُ كَيْفَ نَسَبَ أَبَاهَا إِلَيْهَا لِعَظِيمِ مَحَبَّتِهِ لَهَا صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ.

= وفي الصحيحين عنها قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش، انقطع عقدي، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه، وأقام الناس معه وليسوا على ماء، فأتى الناس أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: ما ترى ما صنعت عائشة، أقامت برسول الله وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء! قالت: فعاتبني أبو بكر، فقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده في خاصرتي، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان النبي ﷺ على فخذي. فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فتيمّموا. فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هذا بأول بركتكم يا آل أبي بكر، قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. وفي المسند بزيادة: قالت: يقول أبي حين جاء من الله من الرخصة للمسلمين: والله ما علمت يا بنية إنك لمباركة، ماذا جعل الله للمسلمين في حبسك إياهم من البركة واليسر.

وعند أبو داود والنسائي بسند جيد عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: استأذن أبو بكر على النبي ﷺ، فإذا عائشة ترفع صوتها عليه، فقال: يا بنت فلانة، ترفعين صوتك على رسول الله ﷺ! فحال النبي ﷺ بينه وبينها. ثم خرج أبو بكر، فجعل النبي ﷺ يترضاها، وقال: «ألم تريني حلت بين الرجل وبينك» ثم استأذن أبو بكر مرة أخرى، فسمع تضاحكها، فقال: أشركاني في سلمكما كما أشركتاني في حربكما. =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وفي الصحيحين في ذكر خبر أم زرع، عن عروة عن عائشة... وفيه بعد أن ذكرت المرأة الحادية عشرة أوصاف زوجها... قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع» أي في الألفة والوفاء. وروى مسلمٌ رحمه الله عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن نساء النبي ﷺ كُنَّ حزبين: فحزبٌ فيه عائشة وحفصة وشفية وسودة، والحزب الآخر: أم سلمة وسائر أزواج النبي ﷺ. وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فكلم حزب أم سلمة أم سلمة فقلن: كلمي رسول الله ﷺ يكلم الناس فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله ﷺ هديةً فليهد إليه حيث كان من نسائه. فكلمته أم سلمة بما قلن، فلم يقل لها شيئاً. فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً. فقلن لها: كلميه، فكلمته حين دار إليها أيضاً ولم يقل لها شيئاً، فسألنها فقالت: ما قال لي شيئاً، فقلن لها: كلميه حتى يكلمك، فدار إليها فكلمته فقال لها: لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتي وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة. قالت: فقلت: أتوب إلى الله من أذاك يا رسول الله. ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأرسلنها إلى رسول الله تقول: إن نساءك يسألنك العدل في بنت أبي بكر، فاستأذنت عليه وهو مضطجع في مرطبي، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلني يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت عائشة: وأنا ساكتة، =

= فقال لها رسول الله ﷺ: «أي بنية أأست تحبين ما أحب؟» فقالت: بلى، قال: «فأحبي هذه» قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ، فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ، فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً.

قالت عائشة فأرسل أزواج النبي ﷺ زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ، وهي التي كانت تساميني منهن في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ولم أر امرأة قطّ خيراً في الدين من زينب، أتقى لله، وأصدق حديثاً، وأوصل للرحم، وأعظم صدقةً، وأشدّ ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تصدق به وتقرب به إلى الله، ما عدا سورةً من حدةٍ كان فيها تسرع منه الفيئة، قالت: فاستأذنت على رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ مع عائشة في مرطها على الحال التي دخلت فاطمة عليها وهو بها، فأذن لها رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، قالت: ثم وقعت بي، فاستطالت عليّ، وأنا أرقب رسول الله ﷺ، وأرقب طرفه هل يأذن لي فيها؟ قالت: فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن أنتصر، قالت: فلما وقعت بها لم أنشبهها حتى أثخنت عليها، فقال رسول الله ﷺ وتبسم: «إنها ابنة أبي بكر».

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= ولمسلم عنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ، أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَطَارَتِ الْقِرْعَةُ لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، وَكَانَ إِذَا كَانَ بِاللَّيْلِ، سَارَ مَعَ عَائِشَةَ يَتَحَدَّثُ. فَقَالَتْ حَفْصَةُ: أَلَا تَرَكِينِ اللَّيْلَةَ بَعِيرِي، وَأُرَكِبُ بَعِيرَكَ تَنْظُرِينَ وَأَنْظُرِي. فَقَالَتْ: بَلَى. فَرَكِبْتَ. فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جَمَلِ عَائِشَةَ، وَعَلَيْهِ حَفْصَةُ، فَسَلِمَ عَلَيْهَا، ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلُوا، وَافْتَقَدْتَهُ عَائِشَةُ. فَلَمَّا نَزَلُوا، جَعَلَتْ رِجْلَيْهَا بَيْنَ الْإِذْخَرِ وَتَقُولُ: يَا رَبِّ، سَلَطَ عَلَيَّ عَقْرَبًا أَوْ حِيَةً تَلْدَغُنِي، رَسُولَكَ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَهُ شَيْئًا. وَفِي هَذَا بَيَانٌ مَنْزِلَتِهَا مِنْ قَلْبِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، وَكَيْفَ كَانَ يُخَصِّصُهَا دُونَ غَيْرِهَا.

وروى أحمد وأصله في الصحيحين عن بن أبي مليكة، قال: قالت عائشة: توفي رسول الله ﷺ في بيتي، وفي يومي وليلتي، وبين سحري ونحري. ودخل عبدالرحمن بن أبي بكر، ومعه سواك رطب، فنظر إليه، حتى ظننت أنه يريدني، فأخذه، فمضغته ونفضته وطيبته، ثم دفعته إليه، فاستن به كأحسن ما رأيت مستنًا قط؛ ثم ذهب يرفعه إلي، فسقطت يده، فأخذت أدعو له بدعاء كان يدعو به له جبريل، وكان هو يدعو به إذا مرض، فلم يدع به في مرضه ذلك. فرفع بصره إلى السماء وقال: «الرفيق الأعلى» وفاضت نفسه. فالحمد لله الذي جمع بين ريقِي وريقه في آخر يوم من الدنيا. والسحر: الرئة، والنحر: أعلى الصدر، ومعنى استن: استاك. وأخرج الحاكم في مستدركه بسنده ووافقه الذهبي عن عائشة: أن رسول الله ﷺ ذكر فاطمة. قالت: فتكلمت أنا. فقال: «أما ترضين أن تكوني =

= زوجتي في الدنيا والآخرة» قلت: بلى والله، قال: «فأنت زوجتي في الدنيا والآخرة».

وله كذلك ووافقه عن عبدالرحمن بن الضحاك: أن عبد الله بن صفوان أتى عائشة، فقالت: لي خلال تسع، لم تكن لأحد، إلا ما أتى الله مريم عليها السلام. والله ما أقول هذا فخراً على صواحباتي. فقال ابن صفوان: وما هن؟ قالت: جاء الملك بصورتي إلى رسول الله، فتزوجني؛ وتزوجني بكرًا؛ وكان يأتيه الوحي، وأنا وهو في لحاف؛ وكنت من أحب الناس إليه؛ ونزل في آيات كادت الأمة تهلك فيها؛ ورأيت جبريل ولم يره أحد من نسائه غيري؛ وقُبض في بيتي، لم يله أحد غير الملك إلا أنا.

وأجمل بالمديحة الحسانية حين قال شاعر الإسلام، وصدق:

رَأَيْتُكَ وَلِيُغْفِرُ لَكَ اللَّهُ حَرَّةً مِنْ الْمُحْصَنَاتِ غَيْرِ ذَاتِ غَوَائِلِ
حَصَانُ رَزَانُ مَا تُزَنُّ بِرَبِيَّةٍ وَتَصْبِحُ غَرْنِي مِنْ لِحُومِ الْغَوَافِلِ
وللترمذي وصححه عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَا أَشْكَلَ عَلَيْنَا
أَصْحَابَ رَسْلِ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَ قَطٍّ، فَسَأَلْنَا عَائِشَةَ إِلَّا وَجَدْنَا عِنْدَهَا مِنْهُ
عِلْمًا.

وله وحسنه أن رجلا نال من عائشة عند عمّار فقال: اغرب مقبوحًا منبوحًا، أتؤذي حبيبة رسول الله ﷺ؟! والمنبوح هو الذي يضرب له مثل الكلب.

وله وصححه عن موسى بن طلحة قال: ما رأيت أحدًا أفصح من عائشة. وقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله ما سمعت خطيبًا ليس رسول الله =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أبلغ من عائشة. وقال مسروق رأيت مشيخة أصحاب رسول الله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** الأكبر يسألونها عن الفرائض. وكان مسروق إذا حدث عن عائشة قال: حدثني الصديقة ابنة الصديق، البريئة المبرأة من فوق سبع سماء. وقال عطاء بن أبي رباح: كانت أفقه الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة. وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بفقهِه ولا بطبِّ ولا بشعر من عائشة، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً. وقال الزهري: لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل. وعن هشام، عن أبيه، قال: لقد صحبت عائشة - وكانت خالته -، فما رأيت أحداً قط كان أعلم بآية أنزلت، ولا بفريضة، ولا بسنة، ولا بشعر، ولا أروى له، ولا بيوم من أيام العرب، ولا بنسب، ولا بكذا، ولا بكذا، ولا بقضاء، ولا طب، منها. وعن عروة قال: ربما روت عائشة القصيدة ستين بيتاً وأكثر. وعن الأحنف، قال: سمعت خطبة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والخلفاء بعدهم، فما سمعت الكلام من فم مخلوق أفخم ولا أحسن منه من في عائشة. وقال موسى بن طلحة: ما رأيت أحداً أفصح من عائشة. وعن الشعبي: أن عائشة قالت: رويت للبيد نحواً من ألف بيت، وكان الشعبي يذكرها، فيتعجب من فقهها وعلمها، ثم يقول: ما ظنكم بأدب النبوة؟! وعن هشام بن عروة، عن أبيه: أنها أنشدت بيت لبيد: ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خُلف كجلد الأجر =

= فقالت: رحم الله لبيدًا، فكيف لو رأى زماننا هذا؟! قال عروة: رحم الله أم المؤمنين، فكيف لو أدركت زماننا هذا؟! قال هشام: رحم الله أبي، فكيف لو رأى زماننا هذا؟! قلت: رحمهم الله، فكيف لو أدركوا زماننا هذا؟!

والأكناف: الجوانب والنواحي، والخُلْفُ: ما جاء من بعد، يقال: هو خُلْفٌ سوء من أبيه بتسكين اللام، وخُلْفٌ صدق من أبيه بتحريكها: إذا قام مقامه.

وعن الشعبي قال: قيل لعائشة: يا أم المؤمنين، هذا القرآن تلقيته عن رسول الله ﷺ، وكذلك الحلال والحرام؛ وهذا الشعر والنسب والأخبار سمعتها من أبيك وغيره؛ فما بال الطب؟ قالت: كانت الوفود تأتي رسول الله ﷺ، فلا يزال الرجل يشكو علة، فيسأله عن دوائها، فيخبره بذلك، فحفظت ما كان يصفه لهم وفهمته.

وبلغ عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزَّيْبِرِ كَانَ فِي دَارِهَا بَاعَتْهَا بِمِئَةِ أَلْفٍ، ثُمَّ قَسَمَتِ الثَّمَنَ، فَتَسَخَطَ عَبْدُ اللَّهِ بِبَيْعِ تِلْكَ الدَّارِ، فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَتَنْتَهِينَ عَائِشَةَ عَنْ بَيْعِ رِبَاعِهَا، أَوْ لِأَحْجِرَنَّ عَلَيْهَا. قَالَتْ عَائِشَةُ: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَلِكَ. قَالَتْ: اللَّهُ عَلِيٌّ أَلَا أَكَلِمَهُ، حَتَّى يَفْرُقَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الْمَوْتَ. فَطَالَتْ هَجْرَتُهَا إِيَّاهُ، فَنَقَصَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ. فَاسْتَشْفَعَ بِكُلِّ أَحَدٍ يَرَى أَنَّهُ يَثْقُلُ عَلَيْهَا، فَأَبَتْ أَنْ تَكَلِمَهُ. فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ، كَلَّمَ الْمَسُورَ بْنَ مَخْرَمَةَ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ الْأَسْوَدِ بْنَ عَبْدِ يَغُوثٍ، أَنْ يَشْمَلَاهُ بِأَرْدِيَّتَيْهَا ثُمَّ يَسْتَأْذِنَا، فَإِذَا أذْنَتْ لِهَمَّا، قَالَا: كَلْنَا؟ حَتَّى يُدْخِلَاهُ =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= على خالته عائشة، ففعلا ذلك. فقالت: نعم كلکم، فليدخل. ولا تشعر. فدخل معها ابن الزبير، فكشف الستر، فاعتنقها، وبكى، وبكت عائشة بكاء كثيرًا، وناشدها ابن الزبير الله والرحم، وناشدها مسور وعبد الرحمن بالله والرحم، وذكر لها قول رسول الله ﷺ: «لا يجل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» فلما أكثروا عليها، كلمته، بعدما خشي ألا تكلمه. ثم بعثت إلى اليمن بمال، فابتيع لها أربعون رقبة، فأعتقتها. وبعث إليها معاوية بمئة ألف فما أمست حتى فرقتها. وقيل: إنه قضى عنها ثمانية عشر ألف دينار، وراها عروة تصدقت بسبعين ألفًا، وإنها لترقع جانب درعها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا. وعند ابن سعد عن أم ذرة، قالت: بعث ابن الزبير إلى عائشة بمال في غرارتين، يكون مئة ألف، فدعت بطبق، فجعلت تقسم في الناس، فلما أمست، قالت: هاتي يا جارية فطوري. فقالت أم ذرة: يا أم المؤمنين، أما استطعت أن تشتري لنا لحما بدرهم؟ قالت: لا تعنيني، لو أذكرتيني لفعلت. وعن عطاء: أن معاوية بعث إلى عائشة بقلادة بمئة ألف، فقسمتها بين أمهات المؤمنين. وفرض عمر لأمهات المؤمنين عشرة آلاف، عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين، وقال: إنها حبيبة رسول الله ﷺ.

وقال شعبة: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه: أن عائشة كانت تصوم الدهر. ولفظ القاسم: أن عائشة كانت تسرد الصوم. قلت: أي تصوم الدهر، ولا تفطر إلا في الأيام المحرمة كالعيدين والتشريق وأيام الحيض.

= وعن إبراهيم النخعي، قال: قالت عائشة: يا ليتني كنت ورقة من هذه الشجرة! وهذا من ورعها وعظيم خوفها من الله، وشدة تواضعها وإزرائها بنفسها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وأرضاهما، وألحقنا بها في السابقين المقربين.

وعن ابن أبي مليكة: حدثني أبو عمرو ذكوان مولى عائشة، قال: قدم درج من العراق، فيه جوهر إلى عمر، فقال لأصحابه: تدرّون ما ثمنه؟ قالوا: لا. ولم يدروا كيف يقسمونه، فقال: أتأذنون أن أرسل به إلى عائشة، لحب رسول الله ﷺ إياها؟ قالوا: نعم. فبعث به إليها. فقالت: ماذا فتح على ابن الخطاب بعد رسول الله؟ اللهم، لا تبقني لعظيته لقابل.

وتوفيت أمنا سنة سبع وخمسين على المشهور، في ليلة سابع عشر شهر رمضان، وأمرت أن تدفن ليلاً فدفنت بعد الوتر بالبقيع، وصلى عليها أبو هريرة، ونزل في قبرها خمسة: عبد الله وعروة ابنا الزبير والقاسم بن محمد وعبد الله بن محمد بن أبي بكر وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، ودفنت به مع صواحبها رضي الله عنهن أجمعين. وفي المستدرک بإسناد صالح، عن أم سلمة: أنها لما سمعت الصرخة على عائشة، قالت: والله لقد كانت أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، إلا أباه.

وللحاكم عن عن سالم سبلان: أنها ماتت في الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان بعد الوتر. فأمرت أن تدفن من ليلتها، فاجتمع الأنصار، وحضروا، فلم ير ليلة أكثر ناساً منها، نزل أهل العوالي، فدفنت بالبقيع. قال الذهبي: مدة عمرها: ثلاث وستون سنة وأشهر.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

وقال: بَاب ﴿وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨]
حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عَدِيٍّ، أَنبَأَنَا شُعْبَةُ، عَنْ
الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي الضُّحَى، عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: دَخَلَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ
عَلَى عَائِشَةَ، فَشَبَّ وَقَالَ:

حَصَانُ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيَّةٍ وَتُصْبِحُ غَرْتِي مِنْ حُومِ الْغَوَافِلِ (١)

= وانظر: الوافي بالوفيات الصفدي (١٦ / ٣٤٢) سير أعلام النبلاء (٢ /
١٧٠) طرح الشريب، زين الدين عبد الرحيم العراقي (١ / ٣٣٧ - ٣٣٩).

(١) قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَعْتَذِرُ فِي شَأْنِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

رَأَيْتُكَ وَلِيغْفِرُ لَكَ اللَّهُ حَرَّةً مِنَ الْمُحْصَنَاتِ غَيْرِ ذَاتِ غَوَائِلِ
حَصَانُ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيَّةٍ وَتُصْبِحُ غَرْتِي مِنْ حُومِ الْغَوَافِلِ
عَقِيلَةٌ حَيٌّ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ كِرَامِ الْمَسَاعِي مَجْدُهُمْ غَيْرُ زَائِلِ
مُهَدَّبَةٌ قَدْ طَيَّبَ اللَّهُ حَيْمَهَا وَطَهَّرَهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَبَاطِلِ
فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمْ فَلَا رَفَعْتَ سَوْطِي إِلَى أَنْامِلِي
وَكَيْفَ وَوُدِّي مَا حَيَّيْتُ وَنُصْرَتِي لِأَلِ رَسُولِ اللَّهِ زَيْنِ الْمُحَافِلِ
لَهُ رَتَّبَ عَالٍ عَلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ تَقَاصِرُ عَنْهُ سَوْرَةُ الْمُتَطَاوِلِ
فَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِلَائِطٍ وَلَكِنَّهُ قَوْلُ امْرِئٍ بِي مَاحِلِ

قال السهيلي: حَصَانُ رَزَانٌ: بِتَوَالِي الْفَتْحَاتِ، مُشَاكَلَةٌ خِفَّةِ اللَّفْظِ لِحِفَّةِ
الْمَعْنَى، أَي الْمَسْمَى بِهَذِهِ الصِّفَاتِ خَفِيفٌ عَلَى النَّفْسِ، وَحَصَانٌ
مِنَ الْحِصْنِ وَالتَّحْصِينِ وَهُوَ الْإِمْتِنَاعُ عَلَى الرَّجَالِ مِنْ نَظَرِهِمْ إِلَيْهَا. وقيل: =

= الإحصان في كلام العرب هو مطلق المنع، فتكون المرأة محصنة بالإسلام، لأن الإسلام يكفها عن ما لا يحل، وتكون محصنة بالعفاف والحياء من أن تفعل ما تعاب به، وتكون محصنة بالحرية وبالتزويج أيضًا. والمرأة حصان بفتح الحاء بينة الحصن، أي مستعملة لما يوجبه عليها الإحصان من الامتناع عما لا يحل ولا يحسن، والخاصن أيضا المتعفة. وقوله: ما تزن بريبة: أي لا تُتَّهَم، يقال أزننت فلانًا بكذا أي أتهمته، فهو يُزَنُّ بكذا.

وقوله: وتصبح غرثي من لحوم الغوافل: أي خميصة البطن من لحوم الناس، أي اغتياهم، وضرب الغرث مثلًا، وهو عدم الطعم وخلو الجوف، وفي التنزيل: ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ [الحجرات: ١٢] ضرب المثل لأخذه في العرض بأكل اللحم، لأن اللحم ستر على العظم، والشاتم لأخيه كأنه يقشر ويكشف ما عليه من ستر. وقال ميتًا، لأن الميت لا يحس، وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب.

وقوله من لحوم الغوافل: يريد العفائف الغافلة قلوبهن عن الشر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: ٢٣] جعلهن غافلات، ولا خطر الشر على قلوبهن، فهن في غفلة عنه، وهذا أبلغ ما يكون من الوصف بالعفاف.

وقوله: له رتب عال على الناس كلهم: فالرتب ما ارتفع من الأرض وعلا. والرتب أيضًا: قوّة في الشيء وغلظ فيه. والسورة: رتبة رفيعة من الشرف، مأخوذة اللفظ من سور البناء.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وقوله: فإن الذي قد قيل ليس بلائطٍ: أي بلاصق، يقال: ما يليط ذلك بفلان، أي ما يلصق به. ومنه سمي الربا: لياطاً، لأنه أُلصق بالبيع وليس ببيع.

وقوله: فلا رفعت سوطي إلى أناملي: دعاء على نفسه، وفيه تصديق لمن قال إن حسان لم يُجلد في الإفك ولا خاض. الروض الأُنْف للسهيلى: (٤ / ٢٩ - ٣٧).

وفي المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم لأبي العباس أحمد الأنصاري القرطبي (٢٠ / ١٤٥): ويعني حسان بهذا البيت - حصانٌ رزانٌ -: أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في غاية العَقَّة والنزاهة عن أن تُزَنَّ بريية؛ أي تُتَّهَم بها. ثم وصفها بكمال العقل والوقار والورع، المانع لها من أن تتكلم بعرض غافلة، وشبَّهها بالغرثي؛ لأنَّ بعض الغوافل قد كان هو آذاها فما تكلمت فيها، فكأنها كانت بحيث تتصر ممن آذاها، بأن تقابلها بما يؤذيها، لكن حجزها عن ذلك دينها، وعقلها، وورعها. انتهى.

قلتُ: والمعنى الذي ذكره في دعائه على نفسه قد سبقه إليه النابغة الذبياني في اعتذاره للمنذر بقوله:

ما قلتُ من سيءٍ مما أتيتَ به إذاً فلا رفعتُ سوطي إلى يدي
وقد أنكر بعض أهل العلم خوض حسان في الإفك، وقد تقدّم شيء من هذا، ونزيده بالقول:

قال ابن عبد البر: وقد أنكر قوم كون حسان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خاض في الإفك وأنه جلد، وجاء أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا برأته من ذلك. وقد ذكر الزبير بن بكار =

= أنها قالت في حق حسان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إني لأرجو أن يدخله الله الجنة بذبّه بلسانه عن رسول الله ﷺ، ف قيل لها: أليس هو ممن لعنه الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك؟ قالت: لم يقل شيئاً ولكنه القائل: فإن كان ما قد قيل عني قتلتهُ فلا رفعتُ سوطي إلي أناملي وعن الزهري قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك ليلة من الليالي وهو يقرأ سورة النور مستلقياً على سريرته، فلما بلغ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ﴾ جلس ثم قال: يا أبا بكر من تولى كبره؟ أليس علي بن أبي طالب؟ قال الزهري: فقلت في نفسي: ماذا أقول؟ إن قلت: لا، لا آمن أن ألقى منه شرّاً! وإن قلتُ: نعم، جئتُ بأمر عظيم! ثم قلت لنفسي: لقد عودني الله على الصدق خيراً، فقلت: لا. ف ضرب بقضيبه السرير قال: فمن؟ يكرر ذلك مراراً. قلت: عبد الله بن أبي ابن سلول. وفي البخاري: كانت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تنكر أن يُسبَّ عندها حسان وتقول: إنه الذي قال: فإن أبي ووالدي وعرضي لعرض محمد منكم وقاءً تنظر: السيرة الحلبية، علي بن برهان الدين الحلبي: (٢/ ٦١٨ - ٦٢١) شيء من خبر حسان وصفوان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: عن عامر الشعبي أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: ما سمعت بشيء أحسن من شعر حسان، وما تمثلت به إلا رجوت له الجنة، قوله لأبي سفيان: هجوت محمدًا فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وأورد ابن عساكر وابن سعد والبيهقي في الدلائل والذهبي في تاريخ الإسلام وغيرهم خبر فتنة رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول في عصابة من المنافقين حين رأوا أن الله قد نصر النبي ﷺ وأصحابه، فأظهروا قولاً سيئاً في منزلٍ نزله رسول الله ﷺ في سفر، وكان في أصحاب رسول الله ﷺ رجل يقال له جعال ورجل من بني غفار يقال له جهجاه، فعلت أصواتهما. وقيل: إن جهجاه خرج بفرس لرسول الله ﷺ وفرس له يومئذ يسقيهما، فأوردهما على الماء فوجد على الماء فتية من الأنصار، فتنازعا على الماء فاقتتلوا، فقال عبد الله بن أبي يومئذ: هذا ما جزونا، أويناهم ومنعناهم ثم هؤلاء هم يقاتلوننا، ولمز صفوان بشأن الإفك، وبلغ حسان بن ثابت الذي بين جهجاه الغفاري وبين الفتية الأنصاريين فغضب وقال:

أَمْسَى الْجَلَايِبُ قَدْ عَزُّوا وَقَدْ كَثُرُوا وابنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بِيضَةَ الْبَلَدِ
في أبياتٍ أُخْرٍ، وَالْجَلَايِبُ: الْغُرَبَاءُ، وَقِيلَ: السَّفَلَةُ. وَالْفُرَيْعَةُ: أُمُّ حَسَانَ.
وقوله: أَمْسَى بِيضَةَ الْبَلَدِ: أَيُّ مَنْفَرَدًا لَا يَدَانِيهِ أَحَدٌ. وَبِيضَةُ الْبَلَدِ: أَيُّ
الْمَقِيمِ فَلَا يَضَعُنَّ، إِمَّا لِعَزَّتِهِ وَكَثْرَتِهِ، وَإِمَّا لِدَلَّتِهِ وَقَلَّتِهِ. فَتَرَادُ مَدْحًا وَذَمًّا،
وهي في هذا الموضع مدح لنفسه، وقد يكون ذمًّا لتهيج قومه، وذلك إذا
أريد أنه ذليل ليس معه غيره.

فقال صفوان: ما أراه إلا عناني، أي بالجلابيب.

فلما قدموا المدينة جاء صفوان إلى جعيل بن سراقه فقال انطلق بنا
نضرب حسان فوالله ما أراد غيرك وغيري، لنحن أقرب إلى رسول الله =

= صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه فأبى جعيل أن يذهب قال لا أفعل إن لم يأمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تفعل أنت حتى تؤامر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك فأبى صفوان عليه فخرج مصلتا السيف حتى ضرب حسان بن ثابت في نادي قومه قائلاً:
تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنِّي غلامٌ إِذَا هُوَ جِئْتُ لَسْتُ بِشَاعِرٍ
قلت: يعني أن جزاءك ضربة سيفٍ نائر، لا بيت شعر سائر. فوثبت الأنصارُ إليه فأوثقوه رباطاً، وكان الذي تولى ذلك منهم ثابت بن قيس بن شماس، فمرَّ بهم عمارة بن حزم فقال: ما يصنعون؟ أمِنُ أمرِ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضاه، أم من أمر فعلتموه؟ قالوا: ما علم به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقال: لقد اجترأت خلل عنه. ثم جاؤوا سعد بن عبادة سيد الخزرج — الذين منهم حسان — وهو مقبلٌ على ناضحه بين القريبتين، فذكروا له ما فعل حسان وما فعلوا فقال: أشاورتم في ذلك رسول الله؟ قالوا: لا. فقعد إلى الأرض وقال: وانقطع ظهراه! أتأخذون بأيديكم ورسول الله بين ظهرائكم؟! فخرج في قومه من الخزرج حتى أتاهم فقال: عمدتم إلى رجل من قوم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أي مهاجري - تؤذونه وتهجونه بالشعر وتشتمونونه، وقد زعمتم أنكم نصرتموهم! فغضب سعد لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي رواية أن رسول الله أمرهم بحبسه حتى ينظر ما يؤول جرح حسان. فقالوا لسعد: فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بحبسه وقال: «إن مات صاحبكم فاقتلوه» قال سعد: والله إن أحب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعفو، ولكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قضى لكم بالحق، وإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= ليحب أن يترك صفوان، والله لا أبرح حتى يطلق، فأطلقوه من الوثاق، فذهب به سعد إلى بيته فكساه حلّة، ثم خرج صفوان حتى دخل المسجد ليصلي فيه، فرآه رسول الله ﷺ فقال: «صفوان؟» قالوا: نعم، يا رسول الله. قال: «من كساه؟» قالوا: كساه سعد بن عبادة، قال: «كساه من ثياب الجنة».

فلما أصبحوا غدوا على النبي ﷺ فذكروا له ذلك فقال: «أين ابن المعطل؟» فقام إليه، فقال: هاأنذا يا رسول الله، فقال: ما دعاك إلى ما صنعت قال: آذاني وكثر عليّ، ولم يرض حتى عرّض بي في الهجاء، فاحتملني الغضب، وهاأنذا، فما كان عليّ من حق فخذني به، فقال رسول الله ﷺ: «ادعوا لي حسان» فأتى به فقال: «يا حسان، أتشوهت عليّ قومي أن هداهم الله للإسلام؟!» يقول: تنفّست عليهم يا حسان، «أحسن فيما أصابك» فقال: هي لك يا رسول الله، فقال: «أحسنت» فأعطاه رسول الله ﷺ سيرين أخت مارية القبطية، فولدت له عبد الرحمن، فكان بعدُ يفتخر أنه ابن خالة إبراهيم بن رسول الله ﷺ. وأعطاه أرضاً له، وأعطاه أيضاً سعد بن عبادة رضي الله عنه حائطاً كان يتحصّل منه مال كبير بما عفا عن حقّه.

وقيل: إنما أعطاه سيرين لذّبّه عن رسول الله ﷺ بشعره، قال ابن عبد البر رحمه الله: إعطاء رسول الله ﷺ سيرين أخت مارية لحسان ابن ثابت يُروى من وجوه أكثرها أن ذلك ليس بسبب ضرب صفوان له، بل لذّبّه بلسانه عن رسول الله ﷺ.

قَالَتْ: لَسْتُ كَذَاكَ — وفي رواية: لَكِنَّكَ لَسْتَ كَذَلِكَ — قُلْتُ:

= هذا وقد استشهد صفوان بن المعطل السلمي شهيداً في سنة تسع عشرة في أرمينيا حين كان على رأس سرية، وقد حاصر حصناً يقال له «بولا» فرموه فقتلوه، فدفن قدام الحصن قريباً منه. قال أبو إسحاق السنجاري: أتينا بولا في بعثٍ فقال لي شيخ من أهلها قد بلغ مائة سنة أو زاد عليها: أتريد أن أريك قبر صفوان بن المعطل؟ قلت: نعم، فإذا هو من بابها على رمية بحجر، وقال: رميناه فقتلناه، فبلغ عمر قتله فدعا علينا دعوة إنا لنعرفها إلى الساعة. وقال عبد الملك بن القعقاع: حدثني مشايخ من الأرمين عن آبائهم: أن صفوان بن المعطل السلمي قاتل فدقت ساقه فلم يزل يطاعن حتى مات.

وقال الذهبي بعد ذكر روايات مخالفة لقتله: فهذا تباين كثير في تاريخ موته فالظاهر أنها اثنان، أي رجلان. والله أعلم.

لطيفة: قال صفوان بن المعطل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: خرجنا حجاجاً فلما كان بالعرج — عقبة بين مكة والمدينة على جادة الحاج — إذا نحن بحية تضطرب، فلم تلبث أن ماتت، فأخرج لها رجل خرقة من عيبته فلفها فيه ودفنها، وخذ لها في الأرض. فلما أتينا مكة فإننا بالمسجد الحرام إذ وقف علينا شخص فقال: أيكم صاحب عمرو بن جابر؟ قلنا: ما نعرفه. قال: أيكم صاحب الجان؟ قلنا: هذا، قال: جزاك الله خيراً، أما إنه كان من آخر السبعة موتاً الذين أتوا رسول الله ﷺ يستمعون القرآن.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

تَدْعِينَ مِثْلَ هَذَا يَدْخُلُ عَلَيْكَ وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ [النور: ١١] فَقَالَتْ: وَأَيُّ عَذَابٍ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَى؟! وَقَالَتْ: وَقَدْ كَانَ يَرُدُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١).

(١) قوله: فقالت: أي عذاب أشد من العمى: كأنه قالت على تقدير فرض شمول الآية لحسان، وإلا فهي في ابن أبي، والله تعالى أعلم. حاشية السندي على صحيح البخاري: (٣/ ١٧).

وإلى شيء من أخبار شاعر الإسلام حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فهو حسان بن ثابت بن المنذر من بني النجار الخزرجي الأنصاري الأزدي من كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ويكنى حسان بن ثابت أبا الوليد. وهو فحل من فحول الشعراء، بل هو أشعر أهل المدر، قال أبو عبيدة: أجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر.

وكان أحد المعمرين من المخضرمين، قيل إنه قد عمّر مئة وعشرين سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام! وشاهد ذلك ما رواه الزبير بن بكار بسنده عن حسان بن ثابت قال: إني لغلام يفعة ابن سبع سنين أو ثمان، إذا بيهودي بيثر ب يصرخ ذات غداة: يا معشر يهود، فلما اجتمعوا إليه قالوا: ويلك، مالك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة. قال: ثم أدركه اليهودي ولم يؤمن به!

قال أبو الفرج الأصبهاني: فهذا يدل على مدة عمره في الجاهلية، لأنه ذكر أنه أدرك ليلة ولادة النبي ﷺ وله يومئذ ثمان سنين، والنبي ﷺ بعث =

= وله أربعون سنة، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، فقدم المدينة والحسان يومئذ على ما ذكره ستون سنة أو إحدى وستون سنة، وحينئذ أسلم. وعن أبي الزناد قال: عمّر حسان بن ثابت عشرين ومئة سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام.

وعن سليمان بن يسار قال: رأيت حسان بن ثابت وله ناصية قد سدّها بين عينيه. وكان حسان يخضب شاربه وعنقته بالحناء ولا يخضب سائر لحيته! فقال له ابنه عبد الرحمن: يا أبت لم تفعل هذا؟ قال: لأكون كأني أسد والغ في دم! قلت: فلا عجب أن يشبه نفسه بالأسد الضارب بذنبه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وعن محمد بن سيرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان يهجو رسول الله ثلاثة رهط من قريش: عبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاصي، فقال قائل لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أهج عنا القوم الذين قد هجونا. فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن أذن لي رسول الله ﷺ فعلت. فقال رجل: يا رسول الله، ائذن لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا. قال: «ليس هناك أو ليس عنده ذلك» ثم قال للأنصار: «ما منع القوم الذين نصرنا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم» فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرف لسانه وقال: والله ما يسرني به مقولٌ بين بصرى وصنعاء.

فقال: «اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ثم اهجهم وجبريل معك». وفي رواية: فأخرج لسانه أسود، فوضعه على =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= طرف أرنبته وقال: يا رسول الله، لو شئت لفريت به المزاد. فقال: «يا حسان وكيف وهو مني وأنا منه؟» قال: والله لأسلنه منك كما يسئل الشعر من العجين، قال: «فأت أبا بكر فإنه أعلم بأنساب القوم منك» فأتى أبا بكر فأعلمه ما قال رسول الله ﷺ فقال: كف عن فلانة، واذكر فلانة. فكان مما قال:

هَجَوْتُ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لَهُ بِكُفٍّ فَشَرُّكُمْ لِحَيْرِكُمْ الْفِدَاءُ
ولما أشدت قريش شعر حسان قالت: إن هذا الشتم ما غاب عن ابن أبي قحافة. قلت: إذ هو أعلم العرب بأنسابها، وقد أعطى حسان مادة خصبة لرمي القوم فأحسن الرمي. حتى أن بعض أهل مكة قالوا حينها: لقد قال أبو بكر الشعر بعدنا! وإنك لترى ذلك واضحًا في ثنايا تلك الأبيات المصمية القاتلة، فمنها ما قاله لأحد قرابة النبي ﷺ من بني هاشم الذي كان يهجو رسول الله ﷺ أشد الهجاء — وقد أسلم بعدد وحسن إسلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — فرماه حسان بنبالي سنّها أبو بكر:

وَإِنَّ سَنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَمَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءَ زُهْرَةَ مِنْكُمْ
وَإِنَّ أُمَّرَأً كَانَتْ سُمِّيَّةُ أُمُّهُ
وَأَنْتَ هَاجِينَ نَيْطَ فِي آلِ هَاشِمٍ
بنو بنتٍ مخزومٍ ووالدك العبدُ
كرامٌ ولم يلحق عجائزك المجدُ
وسمراء مغلوبٌ إذا بلغ الجهدُ
كما نيطَ خلفَ الرّكابِ القَدْحُ الفردُ

=

= فقال العباس: ومالي وما لحسان، يعني في ذكره نتيلة فقال فيها:
وَلَسْتَ كَعَبَّاسٍ وَلَا كَابْنَ أُمِّهِ وَلَكِنْ هَجِينٌ لَيْسَ يُورَى لَهُ زَنْدٌ
وقال في رجل من قريش بعد بدر يهجوهُ بقصيدة منها:
تَرَكَ الْأَحْبَةَ أَنْ يُقَاتَلَ دَوَّهَمَ وَنَجَا بِرَأْسِ طِمْرَةٍ وَجَحَامِ
وقالت عائشة: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - وهي متذوقة وحافضة للشعر كأبيها - سمعت
رسول الله ﷺ يقول لحسان بن ثابت الشاعر: «إِنْ رُوحَ الْقُدْسِ لَا يَزَالُ
يُؤْيِدُكَ مَا كَافَحْتَ عَنِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ» وعن ابن بريدة
قال: أعان جبريل عليه السلام حسان بن ثابت في مديح النبي ﷺ
بسبعين بيتاً. - قلت: ومن ذلك الذب عنه.
وعن جويرية بن أسماء قال: بلغني أن رسول الله قال: «أمرت
عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن،
وأمرت حسان بن ثابت فشفي واشتفى» قلت: لأن حسان كان يبلغ
الكبد بنفوذ شعره، - فهو بمثابة صاروخ بالستي! - إذ تحمله الرواة
وتنقله الركبان لعمقه وجزالته وبديع معانيه، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وعن عوف بن محمد قال: قال النبي ﷺ ليلة وهو في سفر: «أين
حسان بن ثابت؟» فقال حسان: لبيك يا رسول الله وسعديك. قال:
«أحُد» - أي أنشد بالحُداء - فجعل ينشد، ويصغي إليه النبي ﷺ
ويستمع، فما زال يستمع إليه وهو سائق راحلته حتى كان رأس الراحلة
يمس الورك، حتى فرغ من نشيده، فقال النبي ﷺ: «لهذا أشد عليهم
= من وقع النبل».

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= بل قد كان ينشده في مسجد الرسول ﷺ، فعن سعيد بن المسيب
رضي الله عنه: أن عمر مرّ بحسان بن ثابت وهو ينشد في مسجد رسول الله
ﷺ، فانتهره عمر فقال حسان: قد أنشدت فيه من هو خير منك،
فانطلق عمر. الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر: (١)
(١٠٢).

قلت: ومما يدل على تفرّده بهامة الشعر خبر مفاخرته برسول الله ﷺ
مع ثابت بن قيس أمام وفد تميم فغلباهم، وقد بسطتها في (وقد يجمع الله
الشتيتين).

ومن جميل شعره الإيماني:

شَهِدْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ أَنْ مُحَمَّدًا	رسولُ الذي فوق السَّمَوَاتِ مِنْ عَلٍّ
وَأَنَّ أَخَا الْأَحْقَافِ إِذْ يَعْذُلُونَهُ	يَقُومُ بِدِينِ اللَّهِ فِيهِمْ فَيَعْدِلُ
وَأَنَّ أَبَا يَحْيَى وَيَحْيَى كِلَاهِمَا	لَهُ عَمَلٌ فِي دِينِهِ مُتَقَبَّلٌ
وَأَنَّ الَّذِي عَادَى الْيَهُودَ ابْنَ مَرْيَمٍ	رَسُولٌ آتَى مِنْ عِنْدِ الْعَرْشِ مُرْسَلٌ
وَأَنَّ الَّذِي بِالْجِزْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلَةٍ	وَمَنْ دَوْمَهَا فُلٌّ مِنْ الْخَيْرِ مَعَزَلٌ

فيروى أن النبي ﷺ قال حينها: «أنا أشهد معك».

ولتسمح لي نفس القارئ الكريم بنفح شيء من أرج الأدب العربي
العزیز، فإنه ليعز عليّ عزوف كثير من طلبة العلم عن رياض الأدب،
ورغبتهم عنها، بل وازورارهم عن مطالعتها، فضلاً عن روايتها! لما
ظنوه من أنها قاذحة في المروءة، مذهبة للوقار، مبيسة للرواء، غير حقيقة =

= بالارتياض والتمتع والامتاع، أو أنها من حوارم الجلالة العلمية! بل أعنق بعضهم في زعمه بأنها بضاعة السفهاء! وقد بسطت القول في نقض ذلك بالأدلة والشواهد والبراهين والأمثلة في كتاب: (وقد يجمع الله الشئتين) وقد عقد للقرطبي رحمته الله فصلاً نفيساً في تفسيره الجامع لأحكام القرآن عند قول الله تعالى ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ بين فيه أنواع الشعر التي وقع عليها وعلى أهلها الدم، ولابن رشيق القيرواني مقدمة باذخة حافلة لكتابه الموسوم بالعمدة في محاسن الشعر وآدابه، استأذن القارئ الكريم بسوقها علّها تنفخ في نفس بعض المعنيين سلاسة الأدب الرفيع، وصبأ العبق الشذي، وتصلق عارضتهم وأساليبهم بجودة اللفظ الجزيل، وسأختصرها وأقتصرها مكرهاً لضيق المقام، ومن أراد الربيع المخصب فثمّ وابل هطال. قال رحمته الله:

العرب أفضل الأمم، وحكمتها أشرف الحكم؛ لفضل اللسان على اليد، والبعد عن امتهان الجسد. وكلام العرب نوعان: منظوم، ومثور. ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، وردیئة، فإذا اتفقت الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية؛ لأن كل منظوم أحسن من كل مثور من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أن الدر وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه إذا كان مثوراً لم يؤمن عليه، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب؛ وإن كان أعلى قدراً وأغلى ثمناً، فإذا نظم =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= كان أصون له من الابتدال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان مثوراً تبدد في الأسجاع، وتدحرج عن الطباع، ولم تستقر منه إلا المفرطة في اللفظ وإن كانت أجمله، والواحدة من الألف، وعسى أن لا تكون أفضله، فإن كانت هي اليتيمة المعروفة، والفريدة الموصوفة؛ فكم في سقط الشعر من أمثالها ونظرائها لا يعبأ به، ولا ينظر إليه، فإذا أخذته سلك الوزن، وعقد القافية؛ تألفت أشتاته، وازدوجت فرائده وبناته، واتخذ اللابس جمالاً، والمدخر مالاً فصار قرطة الأذان، وقلائد الأعناق، وأمانى النفوس، وأكاليل الرؤوس، يقلب بالألسن، ويجبأ في القلوب، مصوناً باللب، ممنوعاً من السرقة والغصب.

وقد اجتمع الناس على أن المثور في كلامهم أكثر، وأقل جيداً محفوظاً، وأن الشعر أقل، وأكثر جيداً محفوظاً؛ لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المثور.

وكان الكلام كله مثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفرسانها الأمجاد، وسمحائها الأجواد؛ لتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً؛ لأنهم شعروا به، أي: فطنوا.

وقيل: ما تكلمت به العرب من جيد المثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون؛ فلم يحفظ من المثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره. =

= ولعل بعض الكتاب المتصرين للنثر، الطاعنين على الشعر، يحتج بأن القرآن كلام الله تعالى منشور، وأن النبي ﷺ غير شاعر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ فالذي عليه في ذلك أكثر مما له؛ لأن الله تعالى إنما بعث رسوله أمياً غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك، حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة؛ آية للنبوة، وحجة على الخلق، وإعجازاً للمتعاطين، وجعله منشوراً ليكون أظهر برهاناً لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادراً على ما يجبه من الكلام، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر، كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة، والمترسلين وليس بترسل، وإعجازه الشعراء أشد برهاناً، ألا ترى كيف نسبوا النبي ﷺ إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم؟ فقالوا: هو شاعر، لما في قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته، وأنه يقع منه ما لا يلحق، والمنثور ليس كذلك، فمن ههنا قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أي: لتقوم عليكم الحجة، ويصح قبلكم الدليل، ويشهد لذلك رواية يونس عن الزهري أنه قال: معناه ما الذي علمناه شعراً، وما ينبغي له أن يبلغ عنا شعراً.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وقال غيره: أراد وما ينبغي له أن يبلغ عنا ما لم نعلمه، أي: ليس هو ممن يفعل ذلك؛ لأمانته ومشهور صدقه. ولو أن كون النبي ﷺ غير شاعر غرض من الشعر لكانت أميته غرضاً من الكتابة، وهذا أظهر من أن يخفي على أحد.

واحتج بعضهم بأن الشعراء أبداً يخدمون الكتاب، ولا تجد كاتباً يخدم شاعراً، وقد عميت عليهم الأنباء، وإنما ذلك لأن الشاعر واثق بنفسه. مدل بما عنده على الكاتب والملك؛ فهو يطلب ما في أيديها ويأخذه، والكاتب بأي آية يفضل الشاعر فيرجو ما في يده؟ وإنما صناعته فضلة عن صناعته، على أن يكون كاتب بلاغة، فأما كاتب الخدمة في القانون وما شاكلة فصانع مستأجر، مع أنه قد كان لأبي تمام والبحثري قهارمة وكتاب، وكان من عميان الشعراء كتاب أزيمة كبشار وأبي علي البصير، وكان ابن الرومي من أكبر كتاب الدواوين، فغلب عليه الشعر؛ لأنه غلاب. وكما تجد من يمدح السوق في الشعراء فكذلك تجد للسوق كتاباً، وللتجار الباعة، في زمننا هذا وقبله.

ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه، وينسبه إلى أمه، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقل السوق؛ فلا ينكر ذلك عليه، بل يراه أوكد في المدح، وأعظم اشتهاً للممدوح، كل ذلك حرص على الشعر، ورغبة فيه، ولبقائه على مر الدهور واختلاف العصور، والكاتب لا يفعل ذلك إلا أن يفعله منظوماً غير مثثور، وهذه مزية ظاهرة وفضل بين. =

= ولما أوعد رسول الله ﷺ كعب بن زهير ضاقت به الأرض، فأتى إلى رسول الله ﷺ متنكراً، فلما صلى النبي ﷺ صلاة الفجر وضع كعب يده في يد رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد أتى مستأمناً تائباً، أفتؤمنه فأتيك به؟ قال: هو آمن، فحسر كعب عن وجهه وقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله هذا مكان العائذ بك، أنا كعب بن زهير، فأمنه رسول الله رسول الله ﷺ، وأنشد كعب قصيدته التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفسد مكبول
يقول فيها بعد تغزله وذكر شدة خوفه ووجله:

أنبت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة ال قرآن فيه مواعظ وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة فلم أذنب، ولو كثرت في الأقاويل
فلم ينكر عليه النبي ﷺ قوله، وما كان ليوعده على باطل، بل تجاوز عنه
ووهب له برده، فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم.

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: الشعر فيه كلامٌ حسن وقبيح، فخذ الحسن
واترك القبيح، وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الشعر ميزان القول،
ورواه بعضهم: الشعر ميزان القوم.

ويروى عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالت: مر الزبير بن العوام
رضي الله عنه بمجلس لأصحاب النبي ﷺ، وحسان ينشدهم، وهم =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= غير آذنين لما يسمعون من شعره، فقال: مالي أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن الفريعة؟ لقد كان ينشد رسول الله ﷺ فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه إذا أنشده. وكتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ: مر من قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب.

وقال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يجب على الرجل تأديب ولده، والشعر أعلى مراتب الأدب. وقال: اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر دأبكم، فلقد رأيتني ليلة الهرب بصفين وقد أتيت بفرس أغر محجل بعيد البطن من الأرض، وأنا أريد الهرب لشدة البلوى فما حملني على الإقامة إلا أبيات عمرو بن الإطنابة:

أبت لي همتي وأبى بلائي وأخذني الحمد بالثمن الربيح
وإقحامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشتي مكانك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحات وأحمي بعد عن عرض صحيح

ويروى أن أعرابياً وقف على علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: إن لي إليك حاجة رفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك، فإن أنت قضيتها حمدت الله تعالى وشكرتك، وإن لم تقضها حمدت الله تعالى وعذرتك، فقال له علي: خط حاجتك في الأرض، فإني أرى الضر عليك، فكتب الأعرابي على الأرض إني فقير فقال له علي: يا قنبر؛ ادفع إليه حلتي الفلانية، فلما =

= أخذها مثل بين يديه فقال:

كسوتني حلة تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليحيي ذكر صاحبه كالغيث يحيي نداء السهل والجبلا
لا تزهد الدهر في عرف بدأت به فكل عبد سيجزى بالذي فعلا
فقال علي: يا قنبر، أعطه خمسين ديناراً، أما الحلة فلمسألتك، وأما الدنانير
فلأدبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنزلوا الناس منازلهم» وقيل
لسعيد بن المسيب: إن قوماً بالعراق يكرهون الشعر، فقال: نسكوا نسكاً
أعجمياً.

وقال ابن سيرين: الشعر كلام عقد بالقوافي، فما حسن في الكلام حسن
في الشعر، وكذلك ما قبح منه. وسئل في المسجد عن رواية الشعر في
شهر رمضان وقد قال قوم: إنها تنقض الوضوء فقال:

نبئت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطُّولِ
ثم قام فأم الناس، وقيل: بل أنشد:
لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشراً ولو رضيت رمح أسته لاستقرت
وقال الزبير بن بكار: سمعت العمري يقول: روى أولادكم الشعر؛ فإنه
يجل عقدة اللسان، ويشجع قلب الجبان، ويطلق يد البخيل، ويحض على
الخلق الجميل.

وكان ابن عباس يقول: إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه،
فاطلبوه في أشعار العرب؛ فإن الشعر ديوان العرب. وكان إذا سئل عن =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= شيء من القرآن أنشد فيه شعراً. وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كثيرة الرواية للشعر. يقال: إنها كانت تروي جميع شعر لبيد. ولا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين.

وكان أبو السائب المخزومي على شرفه، وجلالته، وفضله في الدين والعلم يقول: أما والله لو كان الشعر محرماً لوردنا الرحبة كل يوم مراراً. والرحبة: الموضع الذي تقام فيه الحدود، يريد أنه لا يستطيع الصبر عنه فيحد في كل يوم مراراً ولا يتركه.

فأما احتجاج من لا يفهم وجه الكلام بقوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ فهو غلط، وسوء تأول؛ لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء، ومسوه بالأذى، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ يريد شعراء النبي ﷺ ينتصرون له، ويحيون المشركين عنه، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة. وقد قال فيهم النبي ﷺ: «هؤلاء نفر أشد على قريش من نضح النبل»، وقال لحسان بن ثابت «اهجهم يعني قريشاً فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام، في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس، وألق أبا بكر يعلمك تلك الهنات» فلو أن الشعر حرام أو مكروه ما اتخذ النبي ﷺ شعراء يشبههم على الشعر، ويأمرهم بعمله، ويسمعه منهم. =

= وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «لأن يمتلى جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلى شعراً» فإنما هو من غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه حتى شغله عن دينه وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، والشعر كغيره مما جرى هذه المجرى من شطرنج وغيره سواء. وأما غير ذلك ممن يتخذ الشعر أدباً وفكاهة وإقامة مروءة فلا جناح عليه، وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين، والجللة من الصحابة والتابعين، والفقهاء المشهورين، من ذلك قول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

ترى من لؤي فرقة لا يصدها
رسول أتاهم صادق فتكذبوا
عن الكفر تذكير ولا بعث باعث
عليه وقالوا لست فينا بما كاث
فإن يرجعوا عن كفرهم وعقوقهم
فما طيبات الحل مثل الخبائث
وإن يركبوا طغيانهم وضلالهم
فليس عذاب الله عنهم بلائث
ومن شعر عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان من أنقذ أهل زمانه للشعر
وأنفذهم فيه معرفة ويروى للأعور الشني:

هون عليك فإن الأمور
فليس بآتيك منهيها
بكف الإله مقاديرها
ولا قاصر عنك مأمورها
ومن شعره أيضاً، وقد روى لورقة بن نوفل في أبيات:
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
لم تغن عن هرmez يوماً خزائنه
يبقى الإله ويفنى المال والولد
والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

=

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= ومن شعر عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

غنى النفس يغني النفس حتى يكفها وإن عضها حتى يضر بها الفقر
وما عسرة فاصبر لها إن لقيتها بكائنة إلا سئبتعها يسر
ومن شعر علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان مجوداً ما قاله يمدح همدان:
ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا نواصيها حمر النحور دوامي
وأعرض نقع في السماء كأنه عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند في الكلاع وحمير وكندة في لحم وحي جذام
تيممت همدان الذين هُمُّ هُمُّ إذا ناب دهر جتتي وسهامي
فجاوبني من خيل همدان عصابة فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت بواباً على باب جنة لقلت لهمدان: ادخلوا بسلام

فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم، ما منهم إلا من قال الشعر،
وخامسهم الحسن بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو القائل وقد خرج على أصحابه
مختضباً رواه المبرد:

نسود أعلاها وتأبى أصولها فليت الذي يسود منها هو الأصل
ومن شعر معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وهو لائق به، دالٌّ على صحّة
ناقله:

إذا لم أجد بالحلم مني عليكم فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم!؟
خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد حباك على حرب العداوة بالسلم
ومن شعر الحسين بن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقد عاتبه أخوه الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في =

= امرأته:

لعمرك إنني لأحب داراً تحل بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل جَلِّ مالي وليس للائمي عندي عتاب
وقال حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يذكر بدرًا:
عشية صاروا حاشدين وكلنا مراجله من غيظ أصحابه تغلي
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا مطايا وعقلنا مدى غرض النبل
وقلنا لهم حبل الإله نصيرنا وما لكم إلا الضلالة من حبل
فثار أبو جهل هنالك باغياً فخاب ورد الله كيد أبي جهل
وأما العباس فكان شاعراً مفلحاً حسن التهدي، من ذلك قوله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يوم
حنين يفتخر بثباته مع رسول الله ﷺ:
ألا هل أتى عرسي مكرري وموقفي بوادي حنين والأسنة تشرع
وقولي إذا ما النفس جاشت لها قدى وهام تدهدى والسواعد تقطع
وكيف رددت الخيل وهي مغيرة بزوراء تعطى باليدين وتمنع
نصرنا رسول الله في الحرب سبعة وقد فر من قد فر عنه فأقشعوا
ومن شعر عبد الله بن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا:
إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى وأعمل فكر الليل والليل عاكراً
وباكرني في حاجة لم يجد بها سواي ولا من نكبة الدهر ناصر
فرجت بمالي همه من مقامه وزايله هم طروق مسامر
وكان له فضل علي بظنه بي الخير إني للذي ظن شاكر
ومن شعر جعفر بن أبي طالب ذي الجناحين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله يوم مؤتة =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وفيه قتل رحمة الله عليه:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شراها
والروم روم قد دنا عذابها علي إن لاقيتها ضرابها

ومن قول عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

وكم من عدو قد أراد مساعتي بغيب ولو لاقيته لتندما
كثير الخنا حتى إذا ما لقيته أصر على إثم وإن كان أقسما
وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أيقظان أنت اليوم أم أنت حالمٌ وكيف يطيق النوم حيران هائمٌ
فلو كنت يقظان الغداة لحرقت جفونا لعينيك الدموع السواجم
نهارك يا مغرور سهو وغفلة وليلك نوم والردى لك لازم
وتشغل فيما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وحسبك من القضاة شريح بن الحارث، فقد كان شاعراً مجوداً، وقد
استقضاه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كتب إلى مؤدب ولده وقد وجدته
وقت الصلاة يلعب بجر و كلب، وأودع الأبيات رقعة وأنفذها مع ولده
مختومة إلى المؤدب:

ترك الصلاة لأكلب يسعى بها طلب الهراش مع الغواة الرجس
فليأتينك غدوة بصحيفة كتبت له كصحيفة المتلمس
فإذا هممت بضربه فبدره وإذا بلغت به ثلاثاً فاحبس
واعلم بأنك ما أتيت فنفسه مع ما يجرعني أعز الأنفس

وأما محمد بن إدريس الشافعي فكان من أحسن الناس شعراً، وهو =

= القائل:

ومتعب العيس مرتاحاً إلى بلد والموت يطلبه في ذلك البلد
وضاحك والمنايا فوق مفرقه لو كان يعلم غيباً مات من كمد
من كان لم يؤت علماً في بقاء غد ماذا تفكره في رزق بعد غد
وهذا باب لو تقصيته لاحتمل كتاباً مفرداً ولكني طبقت المفصل،
وذكرت بعض المشاهير من الناس.

وإنما قيل في الشعر: إنه يرفع من قدر الوضيع الجاهل، مثل ما يضع من
قدر الشريف الكامل، وإنه أسنى مروءة الدني، وأدنى مروءة السرى؛
لأمر ظاهر، ومن ذلك اشتهاى عرابية الأوسى بشعر الشماخ بن ضرار،
وقد بذل له في سنة شديدة وسق بعير تمرأ، فقال:

رأيت عرابية الأوسى يسمو إلى الخيرات منقطع القرين
إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابية باليمين
حتى صار ذلك مثلاً سائراً، وأثراً باقياً، لا تبلى جدته، ولا تتغير بهجته،
وقدح ذلك في مروءة الشماخ، وحط من قدره؛ لسقوط همته عن درجة
مثله من أهل البيوتات وذوي الأقدار.

وإنما فضل امرؤ القيس وهو من هو لما صنع بطبعه، وعلا بسجيته، عن
غير طمع ولا جزع. وحكى عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لو
أن الشعراء المتقدمين ضمنهم زمان واحد، ونصبت لهم راية فجزوا معاً،
علمنا من السابق منهم، وإذ لم يكن فالذي لم يقل لرغبة ولا لرهبة، فقيل:
ومن هو؟ فقال: الكندي، قيل: ولم؟ قال: لأنى رأيتهم أحسنهم نادرة،
= وأسبقهم بادرة.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وممن رفعه ما قاله من الشعر الحارث بن حلزة اليشكري، وكان أبرصاً، فأنشد الملك عمرو بن هند معلقته: آذنتنا بينها أسماء. وبينه وبينه سبعة حجب؛ فما زال يرفعها حجاباً فحجاباً لحسن ما يسمع من شعره حتى لم يبق بينهما حجاب، ثم أدناه وقربه، وأمثاله كثير.

وممن رفعه ما قيل فيه من الشعر بعد الخمول المحلق، وذلك أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به، وكانت للمحلق امرأة عاقلة وقيل: بل أم فقالت له: إن الأعشى قدم، وهو رجل مفوه، محدود في الشعر ما مدح أحداً إلا رفعه، ولا هجا أحداً إلا وضعه، وأنت رجل كما علمت فقيراً حامل الذكر ذو بنات، وعندنا لقحة نعيش بها فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة ونحرت له واحتلت لك فيما تشتري به شراباً يتعاطاه؛ لرجوت لك حسن العاقبة، فسبق إليه المحلق، فأنزله ونحرت له، ووجد المرأة قد خبزت خبزاً، وأخرجت نحيماً فيه سمن، وجاءت بوطب لبن، فلما أكل الأعشى وأصحابه، وكان في عصابة قيسية، قدم إليه الشراب واشتوى له من كبد الناقة، وأطعمه من أطايبها، فلما جرى فيه الشراب وأخذت منه الكأس سأله عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه، وذكر البنات، فقال الأعشى: كفيت أمرهن، وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته:

أرقت وما هذا السهاد المورق وما بي من سقم وما بي معشوق
ورأى المحلق اجتماع الناس، فوقف يستمع، وهو لا يدري أين يريد =

= الأَعشى بقوله، إلى أن سمع:

نفى الذم عن آل المحلق جفنة
تري القوم فيها شارعين وبينهم
لعمري قد لاحت عيون كثيرة
تشب لمقرورين يصطليانها
رضيعةي لَبان ثدي أمِّ تحالفا
تري الجود يجري ظاهراً فوق وجهه
كجايبة الشيخ العراقي تفهقُ
مع القوم ولدان من النسل دردق
إلى ضوء نار باليفاع تحرقُ
وبات على النار الندى والمحلّق
بأسحَم داجٍ عوض لا نتفرّق
كما زان متن الهندواني رونقُ

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى الملحق يهتونه، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبون بناته؛ لمكان شعر الأَعشى، فلم تمس منهن واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من أبيها.

وكذلك بنو أنف الناقة، كانوا يفرقون من هذا الاسم، حتى إن الرجل منهم يسأل: ممن هو؟ فيقول: من بني قريع، فيتجاوز جعفرأ أنف الناقة بن قريع، ويلغي ذكره فراراً من هذا اللقب، إلى أن دفعهم الحطيئة بعد ضيافة الزبرقان بن بدر وأحسن إليه فقال:

سيرِي أُمَامُ فَإِنَّ الْأَكْثَرِينَ حَصًّا وَالْأَكْرَمِينَ إِذَا مَا يَنْسِبُونَ أَبًّا
قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنباً
فصاروا يتناولون بهذا النسب ويمدون به أصواتهم في جهارة.

وعلى الضد من ذلك فالشعر يهتك ويضع، فمن ذلك أن بني العجلان، كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قرى الأضياف، إلى أن =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= هجاهم به النجاشي فضجروا منه، وسُبُّوا به، واستعدوا عليه عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا، فقال: وما قال؟ فأنشدوه:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة فعادى بني عجلان رهط ابن مقبل
فقال عمر بن الخطاب: إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب، فقالوا: إنه قال:
قبيلة لا يغدرون بدمية ولا يظلمون الناس حبة خردل
فقال عمر رضي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ليتني من هؤلاء، أو قال: ليت آل الخطاب
كذلك، أو كلاماً يشبه هذا، قالوا: فإنه قال:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الورد عن كل منهل
فقال عمر: ذلك أقل للسكاك، يعني الزحام، قالوا: فإنه قال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل
فقال عمر: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه، قالوا: فإنه قال:

وما سمي العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل
فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم خادمهم، فقالوا: يا أمير المؤمنين
هجانا، فقال: ما أسمع ذلك، فقالوا: فاسأل حسان بن ثابت، فسأله
فقال: ما هجاهم ولكن سلح عليهم! وكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أبصر الناس
بما قال النجاشي، ولكن أراد أن يدرأ الحد بالشبهات، فلما قال حسان ما
قال سجن النجاشي، وقيل: إنه حده - أي عزّره بالجلد -.

ومن أثر الشعر في النفوس ما ذكره العتبي: أن رجلاً من أهل المدينة =

= ادعى حقا على رجل، فدعاه إلى ابن حنطب قاضي المدينة، فقال: من يشهد بما تقول؟ فقال: زنقطة، فلما ولى قال القاضي: ما شهادته له إلا كشهادته عليه، فلما جاء زنقطة القاضي قال له: فذاك أبي وأمي، أحسن والله الشاعر حيث يقول:

من الحنطيين الذين وجوههم دنانير مما شيف في أرض قيصر
فأقبل القاضي على الكاتب، فقال: كبير ورب السماء، ما أحسبه شهد إلا
بالحق فأجز شهادته.

وكان لأمية بن حرثان ولد اسمه كلاب، هاجر إلى البصرة في خلافة عمر رضي الله عنه، فقال أمية:

سأستعدي على الفاروق رباً له عمد الحجيج إلى بساق
إن الفاروق لم يردد كلاباً على شيخين هامهما زواقي
فكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بإشخاص كلاب، فما شعر أمية إلا
به يقرع الباب.

ولأبي الدهان:

وللشعراء ألسنة حداد على العورات موفية دليته
ومن عقل الكريم إذا اتقاهم وداراهم مداراة جميله
إذا وضعوا مكأويهم عليه وإن كذبوا فليس لهن حيلة
وقال بعض الحدّاق: ليس للجودة في الشعر صفة، إنما هو شيء يقع في
النفس عند المميز: كالفرنند في السيف، والملاحه في الوجه.

حديث الإفك: عبرات وعبر

وقال: باب ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ١٩-٢٠] تَشِيعُ: تَظْهَرُ^(١). وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا

(١) قال العلامة العثيمين رحمه الله: هؤلاء الذين يحبون أن تشيع، فكيف بمن أشاع الفاحشة والعياذ بالله؟! ولمحبة شيوع الفاحشة في الذين آمنوا معنيان:

المعنى الأول: محبة شيوع الفاحشة في المجتمع المسلم، ومن ذلك من يثون الأفلام الخليعة، والصحف الخبيثة الداعرة، فإن هؤلاء لا شك أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، ويريدون أن يفتتن المسلم في دينه بسبب ما يشاع من هذه المجلات الخليعة الفاسدة والأفلام الخليعة الفاسدة أو ما أشبه ذلك، وكذلك تمكين هؤلاء مع القدرة على منعهم داخل، في محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فالذي يقدر على منع هذه المجلات وهذه الأفلام الخليعة ويمكن من شيوعها في المجتمع المسلم هو ممن يجب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي عذاب مؤلم في الدنيا والآخرة.

المعنى الثاني: محبة أن تشيع الفاحشة في شخص معين، وليس في المجتمع الإسلامي كله، فهذا أيضًا له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، فمن أحب =

= أن تشيع الفاحشة في زيد من الناس لسبب ما، هذا أيضا له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، لاسيما فيمن نزلت الآية في سياق الدفع عنه وهي أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، لأن هذه الآية في سياق آيات الإفك، والإفك هو الكذب الذي افتراه من يكرهون النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ومن يحبون أن يتدنّس فراشه، ومن يحبون أن يعير بأهله، من المنافقين وأمثالهم، وقضية الإفك مشهورة. وقد أنزل الله تعالى في هذه القصة عشر آيات من القرآن ابتدأها بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ والذي تولى كبره هو رأس المنافقين عبد الله بن أبي المنافق، فإنه هو الذي كان يشيع الخبر، لكنه خبيث لا يشيعه بلفظ صريح فيقول مثلا: إن فلانا زنى بفلانة، لكنه يشيع ذلك بالتعريض والتلميح، لأن المنافقين جبنا يتسترون ولا يصرحون بما في نفوسهم فيقول عز وجل: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ وفي هذا توبيخ من الله عز وجل للذين تكلموا في هذا الأمر يقول: هلا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا، وذلك أن أم المؤمنين أمهم، فكيف يظنون بها ما لا يليق؟! وكان الواجب عليهم لما سمعوا هذا الخبر أن يظنوا بأنفسهم خيرا ويتبرؤا منه ومن قاله، ﴿لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿﴾ يعني هلا جاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون على هذا الأمر ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوتِيكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ﴾ ولو صدقوا، ولهذا لو أن شخصا شاهد إنسانا يزني وجاء إلى القاضي وقال: أنا أشهد أن فلانا يزني، قلنا: هات أربعة شهداء، فإذا لم يأت بأربعة شهداء جلدناه ثمانين جلدة، فإن جاء برجل ثان معه جلدناهما كل واحد ثمانين جلدة، وثالث أيضا نجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوتِيكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ ولولا الفضل والرحمة من الله لأصابكم فيما أفضتم فيه العقاب المذكور، وفي قوله: ﴿مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ دليل على أن الحديث انتشر وفاض واستفاض واشتهر، لأنه أمر جلل عظيم خطير، والعادة جرت بأن الأمور الكبيرة تنتشر بسرعة، وتملأ البيوت، وتملأ الأفواه والآذان، ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوتِيكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالسِّنِّتِ﴾ من غير روية ومن غير بينة ومن غير يقين، ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ لأنه قذف لأطهر امرأة على وجه الأرض، هي وصاحباتها زوجات رسول =

= الله ﷺ، فالأمر صعب وعظيم، وفي ذلك أيضا - أي من تلقيهم الإفك - تعريض برسول الله ﷺ لأن الله تعالى يقول: ﴿الْخَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالْخَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ ولكنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا طيبة، وزوجها طيب، فزوجها محمد رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم، وهي الصديقة بنت الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعني هلا إذ سمعتموه ﴿قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا هو الواجب عليك أن تنزه الله أن يقع مثل هذا من زوج النبي ﷺ ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ وتأمل كيف جاءت هذه الكلمة التي تتضمن تنزيه الله عز وجل إذ أنه لا يليق بحكمة الله ورحمته وفضله وإحسانه، أن يقع مثل هذا من زوج رسول الله ﷺ.

ثم قال تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني لا تعودوا لمثل هذا أبدا إن كنتم مؤمنين ثم قال تعالى: ﴿وَيَبِّئُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ والحمد لله على بيانه، ولهذا أجمع العلماء على أن من رمى أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بما جاء في حديث الإفك فإنه كافر مرتد، كالذي يسجد للصنم، فإن تاب وأكذب نفسه، وإلا قتل كافرا لأنه كذب القرآن. وكل من رمى زوجة من زوجات الرسول ﷺ بما برأ الله منه عائشة فإنه يكون كافرا مرتدا، يجب أن يُستتاب، فإن تاب وإلا قتل =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= بالسيف، وألقيت جيفته في حفرة من الأرض، بدون تغسيل ولا تكفين ولا صلاة، لأن الأمر خطير، ثم قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾. وسبق أن أشرنا إلى أن الثلاثة من الصحابة الخُلص تورطوا في هذه القضية، وهم حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومسطح بن أثاثة وهو ابن خالة أبي بكر، وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، أما زينب بنت جحش زوج الرسول ﷺ وضررة عائشة فقد حماها الله، لكن أختها تورطت، ولما أنزل الله براءتها أمر النبي ﷺ أن يحد هؤلاء الثلاثة حدَّ القذف، فجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة. أما المنافقون فلم يحدّهم النبي ﷺ، واختلف العلماء في ذلك، فقيل: لأن المنافقين ما كانوا يجزمون، وإنما يقولون: يقال أو يذكر أو سمعنا أو ما أشبه ذلك، وقيل: لأن المنافق ليس أهلاً للتطهير، فالحدُّ طهيرة للمحدود، وهؤلاء المنافقون ليسوا بأهلٍ للتطهير، ولهذا لم يجلدهم الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه لو جلدهم لظهرهم من دنس هذا الشيء، لكنهم ليسوا أهلاً للتطهير، فهم في الدرك الأسفل من النار، فتركهم وذنوبهم، فليس فيهم خير، وقيل غير ذلك، وعلى كل حال فإن هذه القصة قصة عظيمة فيها عبر كثيرة. شرح رياض الصالحين للعثيمين، مختصراً: (١/ ٢٧٥ - ٢٨٥).

حديث الإفك: عبراتٌ وعبرٌ

أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تَجِبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿ [النور: ٢٢] (١) وَقَالَ أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: لَمَّا ذُكِرَ مِنْ شَأْنِي الَّذِي ذُكِرَ، وَمَا عَلِمْتُ بِهِ، فَأَمَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي خَطْبِيَا، فَتَشَهَّدَ فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيَّ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي أَنْاسِ آبَائِي (٢) أَهْلِي، وَإِنَّمَا اللَّهُ (٣) مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي مِنْ سُوءٍ،

(١) قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله. قلت: وهي بلا

شك من أرجى الآيات، والمشهور أنها آية الزمر: ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

(٢) أبناو أهلي: التأبين على وجهين: فتأبين الحي: ذكره بالقبيح، ومنه قوله: أبناو أهلي، أي ذكروهم بسوء. والثاني: تأبين الميت، وهو مدحه بعد موته.

(٣) وايم الله: من ألفاظ القسم، وفيها لغات كثيرة. وتصح بالهمزة كذلك كسراً وفتحاً، وصلاً وقطعاً.

قال ابن الأثير في النهاية في غريب الأثر: (١ / ٢٠٧): أيم الله: من ألفاظ القسم، كقولك لعمر الله، وعهد الله، وفيها لغات كثيرة، وتفتح همزتها وتكسر، وهمزتها وصل وقد تُقطع، وأهل الكوفة من النحاة يزعمون أنها =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

وَأَبْنُوهُمْ بِمَنْ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَطُّ، وَلَا يَدْخُلُ بَيْتِي قَطُّ إِلَّا وَأَنَا حَاضِرٌ، وَلَا غِبْتُ فِي سَفَرٍ إِلَّا غَابَ مَعِي» فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ: فَقَالَ ائْذَنْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ نُضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ. وَقَامَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي الْخَزْرَجِ - وَكَانَتْ أُمُّ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ مِنْ رَهْطِ ذَلِكَ الرَّجُلِ - فَقَالَ: كَذَبْتَ، أَمَا وَاللَّهِ أَنْ لَوْ كَانُوا مِنْ الْأَوْسِ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ تُضْرَبَ أَعْنَاقُهُمْ! حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ شَرٌّ فِي الْمَسْجِدِ، وَمَا عَلِمْتُ.

فَلَمَّا كَانَ مَسَاءَ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ خَرَجْتُ لِبَعْضِ حَاجَتِي وَمَعِيَ أُمُّ مِسْطَحٍ، فَعَثَرْتُ وَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ! فَقُلْتُ: أَيُّ أُمَّ تَسْبِيْنِ ابْنِكَ؟ وَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرْتُ الثَّانِيَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ! فَقُلْتُ لَهَا: أَيُّ أُمَّ، أَتَسْبِيْنِ ابْنِكَ؟ فَسَكَتَتْ، ثُمَّ عَثَرْتُ الثَّلَاثَةَ فَقَالَتْ: تَعَسَ مِسْطَحُ!

= جمع يمين، وغيرهم يقول هي اسم موضوع للقسم.

وقال أبو البركات الأنباري في الإنصاف في مسائل الخلاف (١ / ٤٠٩):

وفيها لغات كثيرة تنيف على عشر لغات: أيمن الله، وإيمن الله، وأيم الله، وإيم الله، وأم الله، وم الله، وليمن الله، ومن الله.

أما ابن أم قاسم المرادي في الجنى الداني في حروف المعاني (١ / ٩٢) فذكر عشرين لغة وأوردها. وانظر كذلك: القاموس للفيروز آبادي

(١٦٠٢).

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

فَانْتَهَرْتُمَا، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا أَسْبُهُ إِلَّا فِيكَ! فَقُلْتُ: فِي أَيِّ شَأْنِي؟ قَالَتْ: فَبَقَرْتُ^(١) لِي الْحَدِيثَ. فَقُلْتُ: وَقَدْ كَانَ هَذَا؟ قَالَتْ: نَعَمْ وَاللَّهِ، فَرَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي كَأَنَّ الَّذِي خَرَجْتُ لَهُ لَا أَجِدُ مِنْهُ قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا، وَوَعَيْتُ^(٢). فَقُلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَرْسَلْنِي إِلَى بَيْتِ أَبِي. فَأَرْسَلَ مَعِيَ الْغُلَامَ. فَدَخَلْتُ الدَّارَ فَوَجَدْتُ أُمَّ رُومَانَ فِي السُّفْلِ وَأَبَا بَكْرٍ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ. فَقَالَتْ أُمِّي: مَا جَاءَ بِكَ يَا بَنِيَّةُ؟ فَأَخْبَرْتُمَا. وَذَكَرْتُ لَهَا الْحَدِيثَ، وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مِثْلَ مَا بَلَغَ مِنِّي فَقَالَتْ: يَا بَنِيَّةُ، خَفَّفِي عَلَيْكَ الشَّانَ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ حَسَنَاءَ عِنْدَ رَجُلٍ يُجِبُّهَا لَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا حَسَدْنَهَا وَقِيلَ فِيهَا. وَإِذَا هُوَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهَا مَا بَلَغَ مِنِّي^(٣). قُلْتُ: وَقَدْ عَلِمَ بِهِ أَبِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَرَسُولُ اللَّهِ

(١) فبقرت: البقر هو الفتح والتوسعة والشق، والمعنى: ففتحت لي الحديث وكشفته وأوضحته.

(٢) الوعك: اضطراب الحمى.

(٣) لم يبلغ منها ما بلغ مني: أي لم يؤثر فيها مثل ما أثر في. وقولها: خففي عليك الشأن، وفي رواية: هوّني عليك، وفي رواية: خففي لها ضرائر: جمع ضرة، وقيل للزوجات ضرائر لأن كل واحدة يحصل لها الضرر من الأخرى بالغيرة.

واستعبرت: أي جرى دمعي. قال في القاموس: العبرة: الدمعة، واستعبر جرت عبرته وحزن.

=

حديث الإفك: عبرات وعبر

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَاسْتَعْبَرْتُ، وَبَكَيْتُ. فَسَمِعَ أَبُو بَكْرٍ صَوْتِي وَهُوَ فَوْقَ الْبَيْتِ يَقْرَأُ، فَنَزَلَ فَقَالَ لِأُمِّي: مَا شَأْنُهَا؟ قَالَتْ: بَلَغَهَا الَّذِي ذَكَرَ مِنْ شَأْنِهَا، ففَاضَتْ عَيْنَاهُ، قَالَ: أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ أَيُّ بُنْيَةٍ إِلَّا رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِكَ، فَرَجَعْتُ.

وَلَقَدْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْتِي، فَسَأَلَ عَنِّي خَادِمَتِي فَقَالَتْ: لَا وَاللَّهِ، مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا عَيْبًا، إِلَّا أَنَّهُمَا كَانَتْ تَرُقُدُ حَتَّى تَدْخُلَ الشَّاهُ فَتَأْكُلَ خَمِيرَهَا أَوْ عَجِينَهَا. وَانْتَهَرَهَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اصْدُقِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى أَسْقُطُوا لَهَا بِهِ (١). فَقَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَيْهَا إِلَّا مَا يَعْلَمُ الصَّائِغُ عَلَى تَبْرِ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ.

وَبَلَغَ الْأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي قِيلَ لَهُ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا كَشَفْتُ كَنْفَ أَنْثَى قَطُّ! قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُتِلَ شَهِيدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٢).

= أقسمت عليك يا بنية إلا رجعت إلى بيتك: هذا مثل قولهم نشدتك بالله إلا فعلت أي ما أطلب منك. ينظر: تحفة الأحوذى: (٩ / ٢٤ - ٢٦).

(١) وأسقطوا لها به: أسقطوا به: أي: قالوا لها السقط من القول، وهو الرديء، يريد: أنهم سبوا، وقوله «به» أي بسبب هذا المعنى: وهو الذي سئلت عنه من أمر عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فيكون المعنى سبوا بهذا السبب. وقيل: أي سموا لها التهمة وصرخوا لها بقالة الناس.

(٢) فبلغ الأمر: أي أمر الإفك. ذلك الرجل: وهو صفوان. الذي قيل له: =

قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبُوَايَ عِنْدِي، فَلَمْ يَزَالَا حَتَّى دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ
 اللَّهِ ﷺ، وَقَدْ صَلَّى الْعَصْرَ، ثُمَّ دَخَلَ، وَقَدْ اِكْتَنَفَنِي أَبُوَايَ عَن يَمِينِي
 وَعَن شِمَالِي. فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّ
 كُنْتُ قَارَفْتِ^(١) سُوءًا، أَوْ ظَلَمْتِ، فَتُوبِي إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ
 مِنْ عِبَادِهِ» وفيه: ... فَوَعِظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَالْتَفَتْتُ إِلَى أَبِي، فَقُلْتُ
 لَهُ: أَجِبْهُ. قَالَ: فَمَاذَا أَقُولُ؟ فَالْتَفَتْتُ إِلَى أُمِّي، فَقُلْتُ: أَجِيبِيهِ. فَقَالَتْ:
 أَقُولُ مَاذَا؟

فَلَمَّا لَمْ يُجِيبَاهُ؛ تَشَهَّدْتُ، فَحَمِدْتُ اللَّهَ، وَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ،
 ثُمَّ قُلْتُ: أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي لَمْ أَفْعَلْ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
 يَشْهَدُ إِنِّي لَصَادِقَةٌ، مَا ذَاكَ بِنَافِعِي عِنْدَكُمْ. لَقَدْ تَكَلَّمْتُمْ بِهِ، وَأُشْرِبْتَهُ^(٢)

= أي عنه من الإفك ما قيل، فاللام هنا بمعنى عن، كما هي في قوله تعالى:
 ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:
 ١١]، أي عن الذين آمنوا، أو بمعنى في، أي قيل فيه، فهي كقوله:
 ﴿يَلَيْتَنِي فَدَمَّتْ لِحْيَاتِي﴾ أي في حياتي.

(١) قارفت: المقارفة هي الكسب والعمل في الأصل، ويقال لمن باشر
 معصية أو ألم بها. وروي بلفظ: ألممت، والإمام: المقاربة، وهو من
 اللمم: صغار الذنوب، وقيل: اللمم مقاربة المعصية من غير إيقاع فعل.
 (٢) وأشربته قلوبكم: أي: تداخل هذا الحديث قلوبكم، كما يتداخل الصبغ
 الثوب فيشربه.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

قُلُوبِكُمْ، وَإِنْ قُلْتُ: إِنْ قَدْ فَعَلْتُ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْ، لَتَقُولَنَّ: قَدْ بَاءَتْ بِهِ^(١) عَلَى نَفْسِهَا. وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا - وَالتَّمَسْتُ اسْمَ يَعْقُوبَ فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ - إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ^ط وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨] وَأَنْزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَاعَتِهِ، فَسَكَّتْنَا^(٢). فَرَفَعَ عَنْهُ، وَإِنِّي لَأَتَّبِعُ السُّرُورَ فِي وَجْهِهِ، وَهُوَ يَمْسَحُ جَبِينَهُ وَيَقُولُ: «أَبْشِرِي يَا عَائِشَةُ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ بَرَاءَتَكَ» قَالَتْ: وَكُنْتُ أَشَدَّ مَا كُنْتُ غَضَبًا، فَقَالَ لِي أَبُو آي: قَوْمِي إِلَيْهِ. فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُهُ، وَلَا أَحْمَدُكُمْ، وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللَّهَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي. لَقَدْ سَمِعْتُمُوهُ فَمَا أَنْكَرْتُمُوهُ، وَلَا غَيْرْتُمُوهُ.

(١) بَاءت به: أي رجعت به وتحملتة.

(٢) اكتنفتني أبو آي: قال في القاموس: اكتنفتوا فلانًا أحاطوا به. والتمست: من الالتماس، أي طلبت. اسم يعقوب عليه السلام: حين قال: فصبر جميل، أي هو أجمل، وهو الذي لا شكوى فيه إلى الخلق. تحفة الأحوذى: (٢٦/٩) وقال شيخ الإسلام في الاستغاثة وهي المسماة: الرد على البكري: (٤٠٠/١): قال بعضهم: ذَكَرَ اللَّهُ الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل. فالصبر الجميل: الذي ليس فيه شكوى إلى المخلوق، والهجر الجميل: الذي ليس فيه أذى، والصفح الجميل: الذي ليس فيه عتاب.

وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: أَمَّا زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِدِينِهَا، فَلَمْ تَقُلْ إِلَّا خَيْرًا. وَأَمَّا أُخْتُهَا حَمْنَةُ فَهَلَكَتْ فِيْمَنْ هَلَكَ. وَكَانَ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ مِسْطَحٌ، وَحَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَالْمُنَافِقُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيٍّ، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَسْتَوْشِيهِ وَيَجْمَعُهُ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ، هُوَ وَحَمْنَةُ. قَالَتْ: فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ أَنْ لَا يَنْفَعَ مِسْطَحًا بِنَافِعَةٍ أَبَدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ﴿أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِيَ الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ﴾ يَعْنِي مِسْطَحًا، إِلَى قَوْلِهِ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] حَتَّى قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى، وَاللَّهِ يَا رَبَّنَا إِنَّا لَنُحِبُّ أَنْ تَغْفِرَ لَنَا. وَعَادَ لَهُ بِمَا كَانَ يَصْنَعُ (١).

(١) «ما تصفون»: أي على احتمال ما تصفونه. وإني لأتبين السرور: أي أعرفه. وهو يمسح جبينه: أي من العرق. تحفة الأحوذى: (٩ / ٢٧)
قلت: وكان الإمام ابن باز رحمته الله لا يتمالك نفسه من البكاء عند قراءة هذا الحديث عليه حتى تعلقو مجلس درسه سكينه وخشوع ودعاء. وقد وقف ابن القيم أثناء ذكره لغزوة المريسيع في الزاد عند هذه الحادثة فقال
رحمة الله تعالى عليه:

وكانت غزوة المريسيع في شعبان سنة خمس، وسببها: أنه لما بلغه صلى الله عليه أن الحارث ابن أبي ضرار سيّد بني المصطلق سار في قومه ومن قدر عليه من العرب، يريدون حرب رسول الله صلى الله عليه، فبعث بريدة بن الحصيب يعلم =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= له ذلك فأتاهم، ولقي الحارث بن أبي ضرار، وكلمه، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبرهم، فندب رسول الله ﷺ الناس فأسرعوا في الخروج، وخرج معهم جماعة من المنافقين، لم يخرجوا في غزاة قبلها، وخرج يوم الإثنين لليلتين خلتا من شعبان، وبلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ، وقتله عينه الذي كان وجهه ليايته بخبره وخبر المسلمين، فخافوا خوفا شديدا، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسي، وهو مكان الماء، فضرب عليه قبته، ومعه عائشة وأم سلمة، فتهيؤوا للقتال، وصف رسول الله ﷺ أصحابه، وراية المهاجرين مع أبي بكر الصديق، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة. ولم يكن بينهم قتال، وإنما أغار عليهم على الماء، فسبى ذراريهم، وأموالهم. كما في «الصحیح»: أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق، وهم غارون. وذكر الحديث. وكان من جملة السبي جويرية بنت الحارث سيّد القوم، وقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبتها، فأدى عنها رسول الله ﷺ، وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مئة - قلت: ومن الأخطاء الإملائية الشائعة بين الكتاب كتابة مئة بالمد (مائة) وقد تواضع الأقدمون على ذلك لحاجة أصحاب الأسواق للتمييز في الكتابة بين كلمتي: مئة وفئة، ولكن بعد الإعجام والتشكيل انتهت تلك الحاجة، فعاد الناس للأصل، وهو كتابتها على نبرة. - أهل بيت من بني المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ. وقصة إسلام بني المصطلق رواها أحمد وغيره وذكرها ابن إسحاق في سيرته بسند حسن إذ صرح فيه بالتحديث، فانتفى تدليسه. =

= ثم قال ابن القيم رحمته الله في سياق ذكر الخبر: ثم سار صفوان بها يُقودُهَا حَتَّى قَدِمَ بِهَا، وقد نزل الجيش في نحرِ الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس، تكلم كلُّ منهم بِشاكلته، وما يليقُ به، ووجد الخبيثُ عدوَّ الله ابنُ أبي مُتَنَفِّسًا، فتنفَّسَ من كَرَبِ النفاق والحسدِ الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك، ويستوشيه، ويُشيعه، ويُدعيه، ويجمعه، ويُفرِّقه، وكان أصحابه يتقرَّبونَ به إليه.

فلما قَدِمُوا المدينةَ، أفاضَ أهلُ الإفكِ في الحديثِ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وآله ساكِنٌ لا يتكلم، ثم استشار أصحابه في فراقها، فأشار عليه عليُّ رضي الله عنه أن يُفارقَهَا، ويأخذَ غيرها تلويحاً لا تصريحاً، وأشار عليه أُسامَةُ وغيره بِامساکِهَا، وألا يلتفتَ إلى كلام الأعداء، فعليٌّ لما رأى أن ما قيل مشكوكٌ فيه، أشار بترك الشكِّ والرَّيبةِ إلى اليقين، ليتخلَّصَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله من الهمِّ والغمِّ الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء، وأسامَةُ لما عَلِمَ حُبَّ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله لها ولأبيها، وَعَلِمَ مِنْ عِفَّتِهَا وبراءتها، وحصانتها وديانتها ما هي فوق ذلك، وأعظمُ منه، وعرفَ من كرامةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله على ربِّه ومنزلته عنده، ودفاعه عنه، أنه لا يجعلُ ربةَ بيته وحبيبته من النساء، وبنَتَ صديقته بالمنزلة التي أنزلها به أربابُ الإفك، وأن رسولَ الله صلَّى الله عليه وآله أكرمُ على ربه، وأعزُّ عليه من أن يجعل تحتَه امرأةَ بغيًّا، وعلمَ أنَّ الصَّديقةَ حبيبةَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله أكرمُ على ربه من أن يبتليها بالفاحشة، وهي تحتَ رسوله.

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وَمَنْ قَوَّيْتُ مَعْرِفَتَهُ لِلَّهِ، وَمَعْرِفَتَهُ لِرَسُولِهِ، وَقَدْرَهُ عِنْدَ اللَّهِ فِي قَلْبِهِ، قَالَ كَمَا قَالَ أَبُو أَيُّوبَ وَغَيْرُهُ مِنْ سَادَاتِ الصَّحَابَةِ، لَمَا سَمِعُوا ذَلِكَ: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]

وتأمل ما في تسييحهم لله، وتنزيههم له في هذا المقام من المعرفة به، وتنزيهه عما لا يليق به، أن يجعل لرسوله وخليله وأكرم الخلق عليه امرأة خبيثة بغياً، فمن ظنَّ به سبحانه هذا الظنَّ، فقد ظنَّ به ظنَّ السوء، وعرف أهل المعرفة بالله ورسوله أن المرأة الخبيثة لا تليق إلا بمثلها، كما قال تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦]، فقطعوا قطعاً لا يشكون فيه أن هذا بهتان عظيم، وفرية ظاهرة.

فإن قيل: فما بأل رسول الله ﷺ توقَّفَ في أمرها، وسأل عنها، وبحث، واستشار، وهو أعرف بالله، وبمنزلته عنده، وبما يليق به، وهالاً قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، كما قاله فضلاء الصحابة؟

فالجواب: أن هذا من تمام الحكيم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سبباً لها، وامتحاناً وابتلاءً لرسوله ﷺ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواماً، ويضع بها آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدىً وإيماناً، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً. واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حُبِسَ عن رسول الله ﷺ الوحيُّ شهراً في شأنها، لا يُوحى إليه في ذلك شيء لتتم حكمتها التي قدرها وقضاها، وتظهر على أكمل الوجوه، =

= ويزداد المؤمنون الصادقون إيماناً وثباتاً على العدل والصدق، وحُسنِ الظنِّ باللهِ ورسوله، وأهلِ بيته، والصّديقين من عباده، ويزداد المنافقون إفكاً ونفاقاً، ويُظهِرَ لِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِينَ سرائرهم، ولتتمَّ العبوديةُ المرادة من الصّديقةِ وأبويها، وتتمَّ نعمةُ اللهِ عليهم، ولتشتدَّ الفاقةُ والرغبةُ منها ومن أبويها، والافتقارُ إلى اللهِ والذلُّ له، وحُسنِ الظنِّ به، والرجاءُ له، ولينقطعَ رجاؤها من المخلوقين، وتيأسَ من حصولِ النُّصرةِ والفرجِ على يدِ أحدٍ من الخلق، ولهذا وفّت هذا المقامَ حقّه، لما قال لها أبواها: قومي إليه، وقد أنزل اللهُ عليه براءتها، فقالت: واللهِ لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ إلاَّ اللهَ، هو الذي أنزلَ براءتي.

وأيضاً فكان من حكمةِ حَبْسِ الوحيِ شهراً، أن القضيةَ مُحَصَّصَتْ وتمَحَّصَتْ، واستشرفتْ قلوبُ المؤمنين أعظمَ استشرافٍ إلى ما يُوحيه اللهُ إلى رسوله فيها، وتطلّعت إلى ذلك غايةَ التطلّع، فوافي الوحيُّ أحوجَ ما كان إليه رسولُ اللهِ ﷺ وأهلُ بيته، والصّديقُ وأهلُه، وأصحابُه والمؤمنون، فورد عليهم ورودَ الغيثِ على الأرضِ أحوجَ ما كانت إليه، فوقع منهم أعظمَ موقعٍ وألطفه، وسُرُّوا به أتمَّ السُّرورِ، وحصل لهم به غايةُ الهناء، فلو أطلع اللهُ رسوله على حقيقةِ الحالِ من أوّلِ وهلة، وأنزل الوحيَ على الفورِ بذلك، لفاتت هذه الحِكْمُ وأضعافُها بل أضعافُ أضعافها.

وأيضاً فإن الله سبحانه أحبُّ أن يُظهِرَ منزلةَ رسوله وأهلِ بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يُخْرِجَ رسوله عن هذه القضية، ويتولّى هو بنفسه =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= الدفاع والمنافحة عنه - قلت: المنافحة هي المناضلة والمخاصمة والمدافعة والإجابة - والردّ على أعدائه، وذمّهم وعيبتهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا يُنسب إليه، بل يكونُ هو وحده المتوليّ لذلك، الثائر لرسوله وأهل بيته.

وأيضاً فإن رسول الله ﷺ كان هو المقصود بالأذى، والتي رُميت زوجته، فلم يكن يليقُ به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظنّ المقارب للعلم ببراءتها، ولم يظنّ بها سوءاً قطُّ، وحاشاه، وحاشاها، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: «مَنْ يَعْذِرُنِي» -: أي من يقوم بعذري ويُشهره إن جزيتُ الأفك على سوء صنيعه، فلا يلومني. ومن ذلك قولهم: قد أعذر من أنذر، أي قام عذره في عدم ملامته إن عاقب - «فِي رَجُلٍ بَلَّغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي»، فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لِكَمال صبره وثباته، ورفقه، وحسن ظنه بربه، وثقته به، وفي مقام الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقّه، حتى جاءه الوحي بما أقرّ عينه، وسرّ قلبه، وعظّم قدره، وظهر لأُمَّته احتفالُ ربه به، واعتناؤه بشأنه.

ولما جاء الوحي ببراءتها، أمر رسول الله ﷺ بمن صرح بالإفك، فحدّوا ثمانين ثمانين، ولم يُحد الخبيث عبد الله بن أبيّ، مع أنه رأس أهل الإفك، فقيل: لأن الحدود تخفيفٌ عن أهلها وكفارة، والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعدّه الله بالعذاب العظيم في الآخرة، فيكفيه ذلك عن =

= الحد، وقيل: بل كان يستوشي الحديثَ ويجمعه ويحكيه، ويُخرجه في قوالب مَنْ لا يُنسب إليه، وقيل: الحدُّ لا يثبتُ إلا بالإقرار، أو بيّنة، وهو لم يُقر بالقذف، ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكره بين أصحابه، ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

وقيل: حدُّ القذف حقُّ الأدمي، لا يُستوفى إلا بمطالبتة، وإن قيل: إنه حقُّ لله، فلا بُدَّ من مطالبة المقذوف، وعائشة لم تُطالب به ابنُ أُبَيٍّ. وقيل: بل تركَ حدَّه لمصلحة هي أعظمُ من إقامته، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه، وتكلمه بما يُوجب قتله مراراً، وهي تأليفُ قومه، وعدمُ تنفيرهم عن الإسلام، فإنه كان مطاعاً فيهم، رئيساً عليهم، فلم تُؤمن إثارة الفتنة في حدّه، ولعله تركَ لهذه الوجوه كُلَّهَا.

فجلد مسطح بن أثاثه، وحسان بن ثابت، وحننة بنت جحش، وهؤلاء من المؤمنين الصادقين تطهيراً لهم وتكفيراً، وترك عبد الله بن أُبَيٍّ إذاً، فليس هو من أهل ذلك.

ومن تأمل قولَ الصّديقة وقد نزلت براءتها، فقال لها أبواها: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: «والله لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ إلا الله»، علم معرفتها، وقوة إيمانها، وتوليتها النعمة لربّها، وإفراده بالحمد في ذلك المقام، وتجريدها التوحيد، وقوة جأشها، وإدلالها ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يُوجب قيامها في مقام الراغب في الصُّلح، الطالب له، وثقتها بمحبة رسول الله ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالاً للحبيب على حبيبه، ولا سيما في مثل هذا المقام الذي هو أحسنُ مقامات الإدلال، فوضعتُه =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= موضعَه، ولله ما كان أحبَّها إليه حين قالت: «لا أحمَدُ إلا الله، فإنه هو الذي أنزل براءتي» والله ذلك الثباتُ والرزانةُ منها، وهو أحبُّ شيءٍ إليها، ولا صبرَ لها عنه، وقد تنكَّر قلبُ حبيبها لها شهراً، ثم صادفتِ الرضى منه والإقبال، فلم تُبادِرْ إلى القيامِ إليه، والسرورِ برضاه وقربه مع شدة محبتها له، وهذا غايةُ الثبات والقوة. زاد المعاد، ابن القيم (٢٥٨) - (٢٦٨) باختصار.

وذكر الواقدي في مغازيه وغيره أثناء روايته لهذه الغزاة مثلاً على بركة طاعة رسول الله ﷺ وشؤم مخالفته، فأورد بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال:

كنت رفيق عبد الله بن رواحة في غزوة المريسيع، فأقبلنا حتى انتهينا إلى وادي العقيق في وسط الليل، فإذا الناس معرسون - أي نازلون للمبيت ليلاً فالتعريس: نزول المسافر آخر الليل للاستراحة. أما الإدلاج فهو السير آخر الليل، وفي الحديث: «من خاف أدلج» - قلنا: فأين رسول الله ﷺ؟ قالوا: في مقدم الناس قد نام. فقال لي عبد الله بن رواحة: يا جابر هل لك بنا في التقدّم والدخول على أهلنا؟ فقلت: يا أبا محمد لا أحب أن أخالف الناس، لا أرى أحداً تقدّم. قال ابن رواحة: والله ما نهانا رسول الله ﷺ عن تقدم. قال جابر: أما أنا فلست ببارح. فودّعني وانطلق إلى المدينة، فأنظر إليه على ظهر الطريق ليس معه أحد، فطرق أهله بلحارث بن الخزرج، فإذا مصباح في وسط بيته، وإذا مع امرأته إنسان طويل - أي نائم قريب منها - فظن أنه رجل، وسقط في يديه، وندم =

= على تقدمه. وجعل يقول: الشيطانُ مع الغرِّ! فاقتحم البيت رافعاً سيفه قد جرّده من غمده يريد أن يضرّ بهما. ثم فكّر وادّكر – وفي هذا فضيلة التّأني والتّثبت – ، فغمز امرأته برجله، فاستيقظت فصاحت وهي توسن – من الوسن وهو النعاس، أي قامت من نومها فجأة – فقال: أنا عبد الله، فمن هذا؟ قالت: رجيلة ماشطتي، سمعنا بمقدمكم فدعوها تمشطني فباتت عندي.

فبات، فلمّا أصبح خرج معترضاً لرسول الله ﷺ، فلقيه ببئر أبي عتبة، ورسول الله ﷺ يسير بين أبي بكر وبشير بن سعد، فالتفت رسول الله ﷺ إلى بشير فقال: «يا أبا النعمان» فقال: لبيك . قال: «إن وجه عبد الله ليخبرك أنه قد كره طروق أهله» – وفيه عظيم فراسة رسول الله ﷺ – فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «خبرك يا ابن رواحة؟» فأخبره كيف كان تقدّم، وما كان من ذلك. فقال رسول الله ﷺ: «لا تطرقوا النساء ليلاً» قال جابر: فكان ذلك أول ما نهى عنه رسول الله ﷺ.

قال جابر: فلم أر مثل العسكر ولزومه والجماعة، لقد أقبلنا من خيبر، وكنا مررنا على وادي القرى فانتهينا إلى الجرف – موضع قرب المدينة – ليلاً، فنادى منادي رسول الله ﷺ: لا تطرقوا النساء ليلاً، قال جابر: فانطلق رجالان فعصيا رسول الله ﷺ، فرأيا جميعاً ما يكرهان! . المغازي: (١ / ٤٤١ – ٤٤٢).

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

وكم في ثنايا تلك المحنة من منحٍ جسام وآلاء عظام، فقد رفعت للصدّيقين منارًا، وأورت زَنْدَ هَمِّ الصّالحين نارًا، وأعلنت في الخافقين للنبي ﷺ وآله وآل أبي بكر كرامةً ورفعةً وفخارًا^(١).

(١) ملخص العبر من هذه الواقعة:

جامعُ الفوائدِ والعبرِ من هذا الخبرِ

فبعد العِبْرَاتِ عِبْرٌ، وقد ذكرنا بعضها في تضاعيف الهوامش والله سبحانه وبحمده في طيّ محنه وابتلاءاته منحٌ ونعم وآلاء. وقد ذكر أهل العلم الغوّاصون في المعاني والممتحون للغرر والحكم فوائد أخلاقية وفرائد فقهية وقلائد مسلكية وخرائد حديثية، حريٌّ بالأمة الوقوف عليها وحقيقٌ بها تدارسها واعتوارها ونشرها. ومن تلك العبر، وقد رَبَّتْ على المئة، وقد ذكر شرطها الإمام النووي رحمته الله، فأخذها عنه من بعده:

قال الحافظ في الفتح: وفي هذا الحديث من الفوائد: جواز الحديث عن جماعة ملفّقًا مجملًا. وفيه مشروعية القرعة حتى بين النساء، وفي المسافرة بهن، والسفر بالنساء حتى في الغزو. وجواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل، ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس، إذا تضمن ذلك إزالة توهم النقص عن الحاكي إذا كان بريئًا، عند قصد نصح من يبلغه ذلك، لئلا يقع فيما وقع فيه مَنْ سَبَقَ، وإن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير في الإثم أولى من تركه يقع في الإثم، وتحصيل الأجر للموقع فيه. وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام. وأن الهودج يقوم مقام البيت في =

= حجب المرأة. وجواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير، ولو كان ذلك مما يشقّ عليه، حيث يكون مطيقاً لذلك. وفيه خدمة الأجنب للمرأة من وراء الحجاب. وجواز تسترّ المرأة بالشيء المنفصل عن البدن. وتوجه المرأة لقضاء حاجتها وحدها وبغير إذن خاص من زوجها بل اعتماداً على الأذن العام المستند إلى العرف العام. وجواز تحلّي المرأة في السفر بالقلادة ونحوها. وصيانة المال ولو قلّ للنهي عن إضاعة المال، فإن عقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جوهر. وفيه توقّف رحيل العسكر على إذن الأمير. واستعمال بعض الجيش ساقه يكون أميناً ليحمل الضعيف ويحفظ ما يسقط وغير ذلك من المصالح. والاسترجاع عند المصيبة. وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي. وفيه إغاثة الملهوف وعون المنقطع وإنقاذ الضائع وإكرام ذوي القدر وإيثارهم بالركوب وتجشم المشقة لأجل ذلك. وحسن الأدب مع الأجنب خصوصاً النساء، لا سيما في الخلوة، والمشي أمام المرأة ليستقر خاطرها، وتأمين مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشي. وفيه ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضي النقص وإن لم يتحقق، وفائدة ذلك: أن تتفطن لتغيير الحال فتعتذر أو تعترف. وأنه لا ينبغي لأهل المريض أن يُعلموه بما يؤذي باطنه لئلا يزيد ذلك في مرضه. وفيه السؤال عن المريض. وإشارة إلى مراتب الهجران بالكلام والملاطفة، فإذا كان السبب محققاً فترك أصلاً، وإن كان مظنوناً فيخفف، وإن كان مشكوكاً فيه أو محتملاً فيحسن التقليل منه، لا للعمل =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= بما قيل، بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل في حقه، لأن ذلك من خوارم المروءة. وفيه أن المرأة إذا خرجت لحاجة تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن عليها. وفيه ذبُّ المسلم عن المسلم خصوصاً من كان من أهل الفضل، وردع من يؤذيه ولو كان منهم بسبيل، وبيان فضيلة أهل بدر. وإطلاق السبِّ على لفظ الدعاء بالسوء على الشخص. وفيه البحث عن الأمر القبيح إذا أُشيعَ وتعرُّفُ صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه، واستصحاب حال من أتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفاً بالخير، إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك. وفيه فضيلة قويّة لأم مسطح لأنهما لم تُحَاب ولدها في وقوعه في حق عائشة، بل تعمدت سبّه على ذلك. وفيه تقوية لأحد الاحتمالين في قوله ﷺ عن أهل بدر: «إن الله قال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» وأن الراجح أن المراد بذلك أن الذنوب تقع منهم لكنها مقرونة بالمغفرة تفضيلاً لهم على غيرهم بسبب ذلك المشهد العظيم، ومرجوحية القول الآخر أن المراد أن الله تعالى عصمهم فلا يقع منهم ذنب. وفيه مشروعية التسبيح عند سماع ما يعتقد السامع أنه كذب، وتوجيهه هنا أنه سبحانه وتعالى ينزه أن يحصل لقراة رسول الله ﷺ تدينس فيشرع شكره بالتنزيه في مثل هذا، - قلت: لو قال أهله لكان أولى من مطلق القراة، لأن عرض أهله متصل به - . وفيه خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها ولو كانت إلى بيت أبيها. وفيه البحث عن الأمر المقول ممن يدل عليه المقول فيه، والتوقف في خبر الواحد ولو =

= كان صادقاً - قلت: أي فيما يسوء - وطلب الارتقاء من مرتبة الظن إلى مرتبة اليقين، وأن خبر الواحد إذا جاء شيئاً بعد شيء أفاد القطع، لقول عائشة: لأستيقن الخبر من قبلهما، وأن ذلك لا يتوقف على عدد معين. - قلت: وقد ذكر العلامة الشنقيطي رحمته الله في كتابه الرحلة إلى مكة زبدة تأمله العميق ونظره الثاقب لمسألة حديث الآحاد على وجه العموم فقال مُزيلاً لإشكال قديم: حديث الآحاد إذا صحَّ سنده فهو قطعيٌّ من حيث العمل لدلالة الشريعة على ذلك، وظنّي من جهة صدق نفسه، والقول بقطعيته الخبرية مع تجويز الكذب على غير معصوم مكابرة. أهد..

وفيه استشارة المرء أهل بطانته ممن يلوذ به بقراءة وغيرها، وتخصيص من جرّبت صحّة رأيه منهم بذلك ولو كان غيره أقرب، والبحث عن حال من اتهم بشيء وحكاية ذلك للكشف عن أمره، ولا يعد ذلك غيبة. وفيه استعمال: لا نعلم إلا خيراً في التزكية، وأن ذلك كافٍ في حق من سبقت عدالته ممن يطّلع على خفيّ أمره. وفيه الثبّت في الشهادة، وفطنة الإمام عند الحادث المهم. والاستنصار بالأخصّاء على الأجنبي. وتوطئة العذر لمن يراد إيقاع العقاب به أو العتاب له. واستشارة الأعلى لمن هو دونه. واستخدام من ليس في الرقّ. وأن من استفسر عن حال شخص فأراد بيان ما فيه من عيب فليقدّم ذكر عذره في ذلك إن كان يعلمه، كما قالت بريرة في عائشة حيث عاتبته بالنوم عن العجين، فقدّمت قبل ذلك أنها جارية حديثه السن. وفيه أن النبي صلّى الله عليه وآله كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحي، لأنه صلّى الله عليه وآله لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي. وأن الحمية =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= لله ورسوله لا تدمّ. وفيه فضائل جمّة لعائشة ولأبويها ولصفوان ولعلي بن أبي طالب وأسامة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. وفيه أن التعصّب لأهل الباطل يُخرج عن اسم الصلاح. وجواز سب من يتعرض للباطل ونسبته إلى ما يسوءه وإن لم يكن ذلك في الحقيقة فيه، لكن إذا وقع منه ما يشبه ذلك جاز إطلاق ذلك عليه تغليظاً له. وإطلاق الكذب على الخطأ، والقسم بلفظ لعمر الله. وفيه النذب إلى قطع الخصومة وتسكين ثائرة الفتنة وسد ذريعة ذلك واحتمال أخف الضررين بزوال أغلظهما. وفضل احتمال الأذى. وفيه مباحة من خالف الرسول ﷺ ولو كان قريباً حميماً. وفيه أن من آذى النبي ﷺ بقول أو فعل يقتل لأن سعد بن معاذ أطلق ذلك ولم ينكره النبي ﷺ. وفيه مساعدة من نزلت فيه بليّة بالتوجّع والبكاء والحزن. وفيه ثبت أبي بكر الصديق في الأمور، لأنه لم ينقل عنه في هذه القصة مع تمادي الحال فيها شهراً كلمة فما فوقها، إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال: والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام، وقع ذلك في حديث ابن عمر عند الطبراني. وفيه ابتداء الكلام في الأمر المهم بالتشهد والحمد والثناء وقول أما بعد. وتوقيف من نقل عنه ذنب على ما قيل فيه بعد البحث عنه. وأن قول كذا وكذا يكتفى بها عن الأحوال كما يكتفى بها عن الأعداد، ولا تختص بالأعداد. وفيه مشروعية التوبة، وأنها تقبل من المعترف المقلع المخلص، وأن مجرد الاعتراف لا يجزئ فيها. وأن الاعتراف بما لم يقع لا يجوز، ولو عرف أنه يصدق في ذلك، ولا =

= يؤاخذ على ما يترتب على اعترافه، بل عليه أن يقول الحق أو يسكت. وأن الصبر تُحمد عاقبته ويغبط صاحبه. وفيه تقديم الكبير في الكلام. وتوقف من اشتبه عليه الأمر في الكلام. وفيه تبشير من تجددت له نعمة، أو اندفعت عنه نقمة. وفيه الضحك والفرح والاستبشار عند ذلك. ومعدرة من انزعج عند وقوع الشدة، لصغر سن ونحوه. وإدلال المرأة على زوجها وأبويها. وتدرّج من وقع في مصيبة فزالته عنه لئلا يهجم على قلبه الفرح من أول وهله فيهلكه، يؤخذ ذلك من ابتداء النبي ﷺ بعد نزول الوحي ببراءة عائشة بالضحك، ثم تبشيرها، ثم إعلامها ببراءتها مجملة، ثم تلاوته الآيات على وجهها، وقد نص الحكماء على أن من أشدّ عليه العطش لا يُمكن من المبالغة في الرّي في الماء، لئلا يفضي به ذلك إلى الهلكة، بل يجرّح قليلاً قليلاً. وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج. وفضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوي على ذلك خفّ عنه الهم والغم، كما وقع في حالتي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها بقولها: والله المستعان. وفيه الحث على الإنفاق في سبيل الخير، خصوصاً في صلة الرحم. ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه أو صفح عنه، وأن من حلف أن لا يفعل شيئاً من الخير استحبه له الحنث. وجواز الاستشهاد بأي القرآن في النوازل، والتأسي بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم. وفيه التسييح عند التعجّب واستعظام الأمر. ودم الغيبة، ودم سماعها، وزجر من يتعاطاها، لا سيما إن تضمّنت تهمة المؤمن بما لم يقع منه، ودم إشاعة الفاحشة، وتحريم الشك في براءة عائشة. =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= وفيه تأخير الحد عمن يخشى من إيقاعه به الفتنة. وفيه منع الحكم حالة الغضب، لما بدا من سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عباد من قول بعضهم لبعض حالة الغضب حتى كادوا يقتتلون، فإن الغضب يخرج الحلیم المتقي إلى ما لا يليق به، فقد أخرج الغضب قومًا من خيار هذه الأمة بحضرة رسول الله ﷺ إلى ما لا يشك أحد من الصحابة أنها منهم زلة. ويؤخذ من سياق عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا جميع قصتها المشتملة على براءتها بيان ما أجمل في الكتاب والسنة لسياق أسباب ذلك، وتسمية من يعرف من أصحاب القصص لما في ضمن ذلك من الفوائد الأحكامية والآدابية وغير ذلك. فتح الباري، ابن حجر: (٨ / ٤٧٤ — ٤٨٢) بتصرف يسير. وقد قدمته مع تأخر زمانه لاحتواء فتحه على جلّ فوائد من سبقه رحمهم الله.

وقال ابن بطال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وفي حديث الإفك من الفقه: تشكّي السلطان والإمام بمن يؤذيه في أهله وفي غير ذلك إلى المسلمين والاستعداد منه. وفيه فضيلة من شهد بدرًا من المسلمين، وأن الدعاء عليهم مما يجب أن ينكر كما أنكرته عائشة على أم مسطح في ابنها مع ما للأبوين من المقال مما ليس لغيرهما. وفيه أن النبي ﷺ لم يكن يأتيه الوحي متى أراد، لبقائه شهرًا لا يوحى إليه. وفيه ترك حدّ من له منعة، والتعرض لما يخشى من تفرّق الكلمة وظهور الفتنة، كما ترك النبي ﷺ التعرض لحدّ عبد الله بن أبيّ بن سلول. وفيه غضب المسلمين لعرض إمامهم وسلطانهم. وفيه أن الشبهة تُسقط العقوبة كما سقط الحدّ.

= وفيه أن من آذى رسول الله ﷺ في أهله أو في عرضه أنه يقتل؛ لقول أسيد: إن كان من الأوس قتلناه، ولم يردّ عليه النبي ﷺ شيئاً، فكذلك من سبّ عائشة بما برأها الله منه، أنه يقتل لتكذيبه القرآن المبرئ لها وتكذيبه الله ورسوله. وقال قوم: لا يقتل من سبّها بغير ما برأها الله منه قال المهلب: والنظر عندي يوجب أن يُقتل من سبّ أزواج النبي ﷺ بما رميت به عائشة أو بغير ذلك؛ لأن قول أسيد: إن كان من الأوس قتلناه، إنما قال ذلك قبل نزول القرآن، ولم يرد النبي ﷺ قوله، ولو كان قوله غير الصواب لما وسع النبي ﷺ السكوت عنه؛ لأنه مفروض عليه بيان حدود الله، ومن سبّ أزواجه ﷺ فقد آذاه وتنقصه، فهو متهم بسوء العقيدة في إيمانه بالنبي ﷺ، فهو دليل على إبطانه النفاق. وفيه معاقبة المؤذي بقطع المعروف عنه. وفيه الأخذ بالعفو والصفح عن المسيء، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب. شرح صحيح البخاري، لابن بطال: (٤٢ / ٨ - ٤٤) باختصار مع حذف المكرر قدر الطاقة.

ومن الاستنباطات المذكورة في عمدة القاري للعيني باختصار: جواز رواية الحديث عن جماعة عن كل واحد قطعة مبهمة منه، وإن كان فعل الزهري وحده فقد أجمع المسلمون على قبوله منه والاحتجاج به. وفيه عدم وجوب قضاء مدة السفر للنسوة المقيمات، وهذا مجمع عليه إذا كان السفر طويلاً، وقال النووي: وحكم السفر القصير حكم الطويل على المذهب الصحيح. وفيه جواز لبس النساء القلائد في السفر كالحضر. وفيه أن من يركب المرأة على البعير وغيره لا يكلمها إذا لم يكن محرماً إلا =

حديث الإفك: عِبْرَاتٌ وَعِبْرٌ

= حاجة لأنهم حملوا ولم يكلموا من يظنونها فيه. وفيه فضيلة الاقتصاد في الأكل للنساء وغيرهن ولا يكثرن منه، بحيث يهبلهن اللحم. وفيه جواز تأخر بعض الجيش ساعة ونحوها لحاجة تعرض لهم. وفيه استحباب الاسترجاع عند المصائب، سواء كانت في الدين أو في الدنيا، وسواء كانت في نفسه أو من يعزّ عليه. وفيه تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي سواء كان صالحاً أو غيره. وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وفيه أنه يستحب أن يُسرَّ عن الإنسان ما يقال فيه إذا لم يكن في ذكره فائدة كما كتموا عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا هذا الأمر شهراً ولم تسمعه بعد ذلك إلا بعارض عرض، وهو قول أم مسطح: تعس مسطح. وفيه استحباب ملاطفة الرجل زوجته وحسن معاشرتها. وفيه أنه يستحب للمرأة إذا أرادت الخروج لحاجة أن يكون معها رفيقة لها لتأنس بها ولا يتعرض لها. وفيه كراهة الإنسان صاحبه وقريبه إذا آذى أهل الفضل أو فعل غير ذلك من القبائح، كما فعلت أم مسطح في دعائها عليه. وفيه جواز التعجب بلفظ التسييح. وفيه جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة لمن له بها تعلق وأما غيره فمنهى عنه وهو تجسس وفضول. وفيه خطبة الإمام الناس عند نزول أمر مهم. وفيه فضائل ظاهره لصفوان بشهادة النبي ﷺ بما شهد، وبفعاله الجميلة. وفيه المبادرة إلى قطع الفتن والخصومات والمنازعات. وفيه تفويض الكلام إلى الكبار دون الصغار لأنهم أعرف. وفيه براءة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا من الإفك وهي براءة قطعية بنص القرآن فلو تشكك فيها إنسان صار كافراً مرتداً بإجماع =

= المسلمين. وفيه تجديد شكر الله تعالى على تجدد النعمة. وفيه فضائل لأبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ﴾ [النور: ٢٢]. وفيه استحباب صلة الأرحام وإن كانوا مسيئين. وفيه استحباب الصدقة والإنفاق في سبيل الخيرات. وفيه استحباب لمن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها أن يأتي بالذي هو خير ويكفر عن يمينه. وفيه فضيلة زينب أم المؤمنين رَضِيَ اللهُ عَنْهَا. وفيه الثبوت في الشهادة. وفيه أن الخطبة مبتدأة بالحمد لله والثناء عليه. وفيه جواز سب المتعصب لمبطل كما سب أسيد بن حضير سعد بن عباد لتعصبه للمنافق وقال: إنك منافق تجادل عن المنافقين، وقد ذكرنا أنه لم يرد به النفاق الحقيقي. وفيه جواز تعديل النساء، لأنه سأل بريرة وزينب عن عائشة وهما من أخبرتا بفضلها وكمال دينها، وبه احتج أبو حنيفة في جواز تعديل النساء بعضهن بعضاً. وفيه جواز تحلي النساء بالذهب والفضة واللؤلؤ والخرز ونحوها. عمدة القاري، للعيني: (٢٠ / ٣١٤ - ٣١٧) مختصراً.

والحمد لله على تمام فضله، وعميم نواله، وجيليل إنعامه، والصلاة والسلام والبركة على نبينا محمد وآله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان.